الجمجمة

لم تكن رأساً فارغاً

روايـــة

الطبعة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: الجمجمة " لم تكن رأساً فارغاً "

اســـم المـؤلف: طالب عمران المعموري

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 16271 / 2020

الترقيـــم الدولي: 5 - 32 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الجمجمة

لم تكن رأساً فارغاً

رواية

طالب عمران المعموري

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

إهداء

إلي روح صديقي رحيم أحمد العميدي

الكاتب

****

(وَقالُوا رَبَّنا إنَّا أَطَعنا سَادَتَنا وَكُبَرآءَنَا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا)

الأحزاب **67**

"عرفانيات"

صمت لحظات، ثم تابع قراءة بعض مسودات روايته التيه بين المقدس والمدنس:

-لا أعرف كيف نمت، تلك القدرة على الحدس والفراسة ومعرفة بعض الأمور الباطنية، هل هي محض مصادفة؟ أو ربما تولدت بسبب كثرة تركيزي في رسم الوجوه والتخطيط، وذلك الولع في قراءة التفاصيل والتجاعيد والوجوه الحزينة، ربما بشكل فطري، تطور الأمر إلى قراءة حركات الحيوانات والطيور، صار هوساً، معتقداً أنّ كلّ ما يجري في الكون ليس محض مصادفة، وإن هذه الأشياء جميعها يسكنها عالم ملكوتي فهو هيّئ في شيء، دفعني إلى قراءة كتب العرفان والكتب الصوفية، التي تعتبر الكشف والوجد والذوق أساس المعرفة، وذلك الدوران رقصاً صوفياً الذي يعد بمثابة الصلاة الذهنية، هو نوع من أنواع الذكر عند متبعي الطريقة الصوفية، ويسمى بـ المولوية، ويكون بالدوران حول النفس والتأمل الذي يقوم به من يسمون الدراويش؛ بهدف الوصول إلى الكمال المنشود. ويهدف من وجهة نظر ممارسيه كبح النفس ورغباتها والدوران حول النفس، ويعتقد أنه أتى من فكرة أو مفهوم دوران الكواكب حول الشمس ويعمد المتصوفون إلى تنظيم رقصات يرتدون فيها تنانير واسعة فضفاضة،

ويقومون بحركات دائرية، ويعتبر راقصو المولوية أو راقصو التنورة أن في دورانهم تجسيد للفصول الأربعة، وهي صلة الوصل بين العبد وخالقه، يقوم الراقص برفع يده اليمنى وخفض اليسرى إلى الأسفل، نوع من المناجاة للخالق. وارتباط هذه الرقصة من وجهة نظر متبعيها باتساق الدوران فيها مع حركة الكون (لقد هبطت النفس إلى هذا العالم وسكنت الجسد فلا بد أن تحن وتضطرب وتخلع عنها سلطان البدن وتنسلخ عن الدنيا لتصعد إلى العالم الأعلى وتعرج إلى المحل الأرفع)[1]، أسسها جلال الدين الرومي في مدينة قونية التركية، في القرن الثالث عشر الميلادي.

تأملت كثيراً في أقوال الصوفين من قال: (سبحاني ما أعظم شأني) لجلال الدين الرومي[2] وقد أوصى أن يكتب على قبره البيت الشعري الذي يقول فيه: لن تكون الأرض بعد الموت قبري... إن قبري في صدور العارفين.

[1] النفس ابن سينا

[2] جلال الدين الرومي هو أحد الألقاب التي اشتهر بها، وهو رجل دين ومتصوف له العديد من المؤلفات في التصوف والشعر أبرزها ''معارف بهاء ولد''. وكان يطلق عليه لقب مولانا، وهو من أصل فارسي. ولد جلال الدين الرومي في السادس من ربيع الأول من سنة 604 هجرية، الموافقة لسنة 1207 ميلادية. عاش حياة متنقلة وخاصة في بدايات حياته، حيث انتقل مع والده من بلخ وعمره ست سنوات إلى بغداد وأقام فيها ثلاثة أيام، قبل أن يغادرها إلى مكة مع والده لأداء فريضة الحج، وبعدها انتقل إلى الشام والتقى بعلمائها، ثم حط رحاله في قونية التركية، حيث عاش فيها وعرف التصوف فيها حتى وافته المنية هناك في خريف العام 640 هجرية.

كيف انتهت حياته؟ حياة عشق وفن وموسيقا ورأفة بالخلق وتمجيد الإنسان ومحاولة للنهوض به من سجن الطين والشهوات للتحليق في المقامات.

شغفي بالكتب الغريبة التي تهتم بعلوم (الباراسايكولوجي) لتنمية الحاسة السادسة القدرات والطاقات، والقوى الغريبة
وكما قيل (أتزعم أنك جرم صغير انطوى فيه العالم الأكبر))
قدمت إلى الرياضات والمجاهدات الروحية والخلوة والصيام أربعين يوماً والعزوف عن الشهوات جربت فن التخاطر عن بعد،
ذلك ماكنت أطمح إليه، أن تضاء بصيرتي، ماسكاً مسبحتي وعلى عدد خرز المسبحة أردد (يا نور يا قوي) كاشفاً لي ضرباً من الانجذاب والتجلي وكأن روحي تخرج وأنا أتطلع مندهشاً إلى جسدي وقد سقط الكتاب على صدري ومسبحتي قد تدلت، أصابتني غبطة مشوبة بشيء من الخوف رجعت روحي بسرعة، وكأنها مرتبطة معه بحبل أثيري، اختلط الأمر عندي بين اليقظة والحلم...

أسري ليلاً من صومعتي إلى السماوات أو إلى الأرضين
أرى كما يرى النائم:

لم أحلّق بجناحين ولكن بتلك اليدين النحيلتين وذلك الجسد الذي بدا مضمحلاً، ربما كان أقل كثافة.. فبمجرد أن أحرك يدي إلى الأعلى أو إلى الأسفل أواصل تحليقي. بزمكاني وصلت إلى أرض والسماء بلون واحد، لون التراب... كان هبوطي بالقرب من أسدين كبيرين.. كنت قريباً منهما إلى حد الالتصاق أسمع أنفاسهما وألمس جسدهما... بلا خوف ولا وجل... ربما أراهم ولا يروني أو ربما كنت من جنسهم أسداً ثالثاً.

(إنّ للأرواح مساحة في هذا العالم أكبر من مساحة الأجساد المزروعة فيها)[3]

[3] رواية نبض ادهم الشرقاوي

"الجمجمة القديمة"

أمطار تشرين المتساقطة بغزارة ليست كالسنين الماضية وسيول الماء المنحدرة من أعالي القرية إلى نهايتها حيث شاطئ نهر الحلة الذي يحدها من الجنوب، بيوت متراصة بخطين متوازيين يفصلهما شارع ضيق لمرور سيارة واحدة، وإنّ كأساً من الماء قد يغرقها لافتقارها لمجاري الماء النظامية، يتطوع بعض شباب القرية ومختار المنطقة لإزاحتها بمكانس كبيرة، تتعالى أصوات النساء في الأزقة حيث يتجمع الماء عند عتبات البيوت المنخفضة عن مستوى الشارع لأن كما يقول المثل (الماي يدهده على النصه) وهو مثل يضرب على الفقير، توقف المطر قليلاً.. تعالت أصواتهن من جديد وهذا الصخب كأنه مظاهرة، عاد الهدوء وخرج الناس كل على شاكلته.

الجمجمة... لم تكن رأساً فارغاً بل هي قرية مليئة بالحياة، يفوح ماضيها بتاريخها العبق وموقعها الجميل، ذات عادات وتقاليد حكاياتها الشعبية، وأساطيرها، عشقها وفنها، وأمثالها الجميلة...

حافظت على تماسكها الاجتماعي والعلاقات الحميمة بين أبنائها الذين يشتركون في النسب والمصاهرة، القرابة والجيران، معظم بيوتها قديماً بنيت

بالحجارة والطين والنورة، سقوفها من جذوع النخيل والسعف من طابق واحد باستثناء ثلاثة أو أربعة بيوت كانت بطابقين واجهته الامامية من الخشب فيه نقوش (شناشيل) وتكثر فيها الشبابيك والأقواس.

لم تبعد عن مركز المدينة إلا بضع فراسخ، أتاح لهم القرب من مدينة بابل الأثرية حيث اختلاطهم بالسواح الأجانب، أتقن بعضهم اللغة الإنجليزية وهم لا يعرفون القراءة والكتابة، منهم من أصبح خبيراً في الآثار وله دراية بالرقم الطينية، ويميز بين الحقيقي والمزور. وعمل بعضهم في حملات التنقيب مع الألمان والإنجليز بما تحويه هذه المنطقة من جماجم الإنسان القديم وعظامه، قطع خزفية، أختام أسطوانية وعملات نقدية لمختلف العصور البابلية.

القرية تحاط بأشجار النخيل والتي تنتهي عند نهر (الحلة) الملتوي كثعبان طويل يخترق النخيل الذي يشطرها إلى نصفين، ذلك النهر الذي طالما تغنى به الشعراء الحليين أمثال (موفق ابو خمرة)[4]،.. الذي كتب قصيدته باللغة العامية والفصيح ..

قائلاً:

أنا أحب الحلة لأني ولدت على بعد

موجتين من نهرها

[4] شاعر عراقي من مدينة الحلة

فسمتني الحبوبة موفقا وقمطتني
بطين النهر
في المساء
أسرجت أمي سبع شموع في كتاب
وسيستني بجاري البتول
داعية لي أن لا أكون شاعراً
لأن أباها ـ رحمه الله ـ كان شاعراً
لا يطفر من مقلاة إلا ليقع في أخرى
أشد وأقلى..
ضيع الصاية والصرّماية وتركهم بلا مأوى
أنا أحب الحلة فقد علّمني نهرها
القراءة والكتابة
وأعارني كتباً ممنوعة
لا أعرف كيف حافظ على الدم المتخثر
فيها وهو الجاري منذ بدء الخليقة
ففي كل موجة دم ونواح
وكأن العراق أم ولد غريق تولول
ناثرة شعرها منذ بدء الشرائع في
الشرايع..

وتيقنت بأنّ النهر نواح الثكالى وأنين
المذبوحين
وأن هذا الأبيض المشتعل في
أمواجه من منبعه إلى مصبه شيب
تمشطه القرابين المسفوحة ليل
نهار..
أبعد كل هذا.. لا أحب الحلة
أعشقها
وأعشق مجانينها المتأبطين كتباً
من مات منهم ومن بقي على قيد الموت
أبعد كل هذا ألا يلتفت أحد لنهر الحلة ؟؟؟

لطالما تساءل هاشم:

- لا أعرف لمَ سميت القرية بهذا الاسم عن أسطورة أو خرافة أو ربما لكثرة الجماجم والعظام وهي امتداد لآثار بابل التاريخية، لكني سمعت ذات مره من الحاج (عبد نجم) وهو رجل كبير السن وكان بصحبتي صديقي (أبو حسن) بعد أن ألقينا عليه السلام جالساً في مقهى الحاج لطيف وهو يغص بالجالسين، رائحة الشاي النفاذة، طلب إلينا الشاي بينما تتعالى أصوات الجالسين والمنهمكة بألعاب (الدومينو) وآخرين يلعبون (الطاولة)، صوت

المذياع يصدح (لا خبر.. لا جفية...لا حامض حلو لا شربت) للمطرب (فاضل عواد) وآخر يدندن بصوت خافت معه، متكئاً على تلك الأريكة المتهالكة وهو يخرج مسبحته السوداء الطويلة وثمة طاقية بيضاء تعلو رأسه

-الله بالخير...

- الله بالخير...

قائلاً وهو ينهي احتسائه الشاي:

-يقولون، إن سيدنا علي قد مرّ من هذا المكان حين عودته من معركة النهروان ودفن ابنه عمران متوجها إلى (الكوفة) فوجد جمجمة فحدثها هكذا الرواية وهكذا عقلها أكثر الناس، تكلم بطريقة الرواة الإخبارين الذين ينقلون الحديث كما ورد غثه وسمينه... استوقفتني تلك الرواية الخاصة وعادت بي إلى فهم الرواية بالمعنى الأعم وأثرها على العقل الجمعي وأن معظمها لم تخضع للتحقيق، يذكرني ذلك الصراع بين أهل العقل وأهل الحديث ما حصل في زمن الدولة العباسية[5] حيث قرب فقهاء أهل الحديث[6] (النقل) إلى الخليفة بما يخدمه في صراعه السياسي مع خصومه

[5] الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية. استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة

[6] أهل الحديث أو أصحاب الحديث أو أهل الأثر هي إحدى المدارس السنية الإسلامية التي تميزت بالاهتمام بالحديث النبوي، والتي تبلورت في صدر الإسلام على يد علماء الحديث. عرفهم الشهرستاني (ت 548 هـ) في كتابه الملل والنحل بأنهم الذين يعتمدون في استنباط الأحكام على النصوص

من أهل القول بالرأي والعقل واستبعادهم بذريعة دفاعه عن الدين في حين كانت غايته التشبث بالسلطة واستغلال فتاويهم .

مضى في كلامه:

-القرية قديماً كانت محاطة بسور طيني عالٍ يحيط فيه أربعة أبراج للمراقبة تسمى (المفتول)، وقد تعرض أحد هذه الابراج للقصف من قبل القوات العسكرية (الإنجليز) رداً على تعرض مجموعة من أبناء القرية على رتل عسكري كان متوجهاً من مدينة الحلة الى بغداد بالأسلحة التركية بنادق (مكنزيه) استشهد فيها العديد وإصابة عدد بجروح من الحراس.

للقرية مدخلان من الأمام يسمى (باب السور) والباب الآخر (الشطانية) لقربها من الشاطئ وفي وسطها شارع يسمى(العجد) كما يسمونه أهل المدينة(العكد)، يتفرع الى أزقة صغيرة (المجاز)، يحميها حراس من أهل القرية يطلقون عليهم ب (الوحاحيش)[7] كاظم حمادي، عطيه عباس، عبيس حمادي، جواد شاكر، طاهر كتاب، خلال الاعوام **1935-1961**، ، تهدمت باب السور الشطانية، بقيت الى جوارها غرفتان بطول ثمانية أمتار تسمى الحضيرة تستخدم لخزن التمور مبنية بحجارة بابل ومسقفه بجذوع

---

[7] الوحاحيش وهي كلمة عامية تطلق على الحراس

وسعف النخيل لها باب كبيرة من الخشب بمصراعين فيها دعامة تزينها بمسامير حديدية طويلة يعطيها شكلاً أكثر فخامة، استحضر هاشم صورة في مخيلته بعض الأبواب في القرية قريبة الشبه منها إلا أنها أصغر حجماً عليها مطرقة نحاسية على هيئة كف، وقد تعلق في البيوت يسمى بالعهد العثماني (يد فاطمة) المعروفة لدى الشيعة بكف فاطمة (نسبة إلى فاطمة بنت النبي محمد) هي كف مريم لدى المسيحيين، ويد الله (في إشارة إلى آية موسى لفرعون) لدى اليهود، وكف عشتار عند السومريين والأكاديين. ولأن النساء هن الأكثر عُرضة للحسد، بحسب المعتقدات الشعبية، نُسبت الكف (رمز الحماية والمنع) إلى المرأة، في حين يُعتقد في الموروث الشعبي الإسلامي، أنها كناية عن سورة الفلق (ذات الآيات الخمس) في دفع الحسد. أكمل الحاج حديثه:

وقد تحتوي على مطرقتين صغيرة وكبيرة فعندما يطرق بالصغيرة يفهم أن الذي يطرق الباب امرأة تذهب سيدة البيت تفتح الباب وعندما يطرق بالكبيرة يفهم أن على الباب رجل فيذهب رجل البيت يفتح الباب ويستقبل ضيفه، وقد تكون المطرقة على شكل هلال. هنالك أيضاً طلسمان حدوة الحصان الذي يعلق على أبواب البيوت لمنع الشر والحسد، فيعود أصله لأسطورة القديس دونستان[8] **Dunstan** والشيطان عام **1871**

[8] اسطورة تعود للقرن العاشر، تعلق حدوة الحصان على باب المنزل تحمي من الشر حسب زعم الاسطورة

وأردف قائلاً:

- قديماً على جانبي القرية بساتين النخيل والجنائن التي تسقى بالنواعير الموجودة على الأنهار الصغيرة التي تدورها الحمير، تعود ملكيتها إلى كبار الاقطاع أمثال الجادرجي الذي كان قد بنى قصراً يزوره بين فترة وأخرى أو يدعو كبار الضيوف كما حدث أن قضى ليلته فيه والي بغداد) سري باشا (ومفتي الحلة) مصطفى الواعظ وعبد الرحمن النقيب بعد افتتاح سدة الهندية (شودزفير) عام **1890**م ،

-قام الجادرجي ومن خلال علاقاته مع العثمانيين استطاع أن يحصل على كثير من الأراضي منهم ووكل كاتباً له يسمى (الدفتري) عمل على توزيع الأراضي جعل فيها فلاحين مقابل سندات فهو الذي يتبنى الجباية واستحصال الضرائب.

تحاط القرية من جهة اليسار بساتين (الرهيمية) ومن اليمين بساتين (المؤمنين) حيث بساتين النخيل والعنب والرمان والأجاص، وخضار، أكثر غلاتهم، يحملونها بعربات تجرها حمير أو خيول، يبيعونها في سوق المدينة يشكل لهم مورداً مع ما يحصلون عليه من مواشيهم من حليب وجبن وجلود.

تداخل أبو حسن مع الحاج: وهو يحرك الملعقة في (إستكان الشاي) أشياء علقت بالذاكرة لا يمكن نسيانها:

-كنا نحّمل التمر في عربة يجرها حمار إلى سوق المدينة عند (سِّيف) سيد غافل، ملتزماً بتعليمات أبي (الله يرحمه ويرحم والديكم)

أجاب الحاج:

- (ووالديك)

- كون السيد يثقون به ثقة عمياء فهو يأخذ محصول التمر من جميع أهل القرية وعلى بساطتهم يرمون حمولتهم في (السِّيف)[9] يتلقفه الحمّالون يكيلون بطريقة عد (الزنابيل)، له اثنان ولنا واحدة، (تلك إذا قسمة ضِيزى)، وليومين أو أكثر، يرجع أبي الى السوق مارا بالسيد يعطيه ثمن التمر، قَبَّلَ باطن كفه وظهرها ويضعها على جبينه تعبيراً عن شكر النعمة، (كم المبلغ؟ وبكم اشترى؟) لا يعرف، واضعاً النقود في جيبه شاكراً السيد وينصرف، هكذا كان الناس يقفون للسيد بالاستعداد مهابة، يقولون هذا (ابن رسول الله) راسمين لهذه الرموز هالة من القدسية إلا أن الكثير مارس استبداده باسم المقدس منهم يستغلون ويستغفلون الناس البسطاء، واستطرد:

-كان أبي يقول أن السيد إذا دخل قريةً راكباً حماره تستقبله الناس بالعطايا والنذور والحليب والدجاج والبيض و(حلانات التمر)[10]، يلوح بعصاه

[9] السيف : هو مخزن لبيع الحبوب والتمر

[10] حلانات التمر جلد الاغنام او من خوص سعف النخيل يحفظ فيه التمر

تخافه الناس وتهابه ويقولون (هذا السيد يحرگ حرگ)

أردف هاشم:

-"ألفوا قيودهم وكأنها قدر بل يقدسون هذه القيود ويحاربون من يتعرض لها"،"الشعب هو الذي يقهر نفسه بيده"

أكمل أبو حسن:

- كانوا يعتقدون إذا لم يجزلوا بعطاياهم فإن الله يغضب عليهم ويحرق محاصيلهم قاطعه الحاج عبد نجم قائلاً:

- أي والله أو كما يقال (شارته باليد)، همَّ بإخراج كيس من معطفه (تبغ وأوراق لف) ليعّمر سيجارة

هزّ رأسه أبو حسن قائلاً:

-يشفي مرضاهم ويزداد خيرهم هكذا الناس تعتقد أن لهم كرامة ' صار هؤلاء الناس يملكون آلاف الدونمات من الأراضي الزراعية (ملاليج)[11] أو الإقطاع، يعمل الفلاحون مقابل أجور زهيدة أو مقابل حصولهم على سكنهم والطعام .

لحظتئذ دخل عدنان إلى المقهى بدون أن يلقي السلام يجلس على الأريكة المقابلة واضعاً ساقاً على أخرى آمراً (حجي لطيف) بجلب الشاي، أثارَ

[11] ملاليج: أصحاب الاملاك

حفيظة الرجال المسنين متمتمين (شباب لا تخجل ولا تستحي)، رفع رأسه مجيلاً نظره في المتطلعين إليه إلا أنه غير آبه لنظرة الاستهجان، مدندناً مع صوت المذياع (لا خبر... لا جفيه، لا حامض حلو لا شربت)

أجابه آخر:

ـ اتركه بحاله (ما ظل عقل براسه) تتخلله نوبات سعال عقب كل نفثة دخان تتبدد وسط ذلك الضجيج،

كان في مواجهتنا على الأريكة اثنان يقربان بين لحظة وأخرى رأسيهما ليتبادلا حديثاً بصوتٍ خافتٍ: -ما هي قصة (أم عياش)؟ سمعت أن مسجد القرية سابقاً اسمه أم عياش أجابهم:

- موقع تاريخي قديم شوهد قبل خمسينيات القرن الماضي، كومة من الأحجار مرتفعة نسبياً عن الأرض وبجانبها شجرة سدرة قديمة جداً عرض ساقها مترين، قيل إن هذا الأثر هو مسجد (أم عياش) وكلما ذُكِر اسمها يرددون (أم عياش عيشينه وعيشي الناس) تساءل هاشم:

- من تكون أم عياش هذه حتى يطلبون منها؟، كان من الأجدر بهم يطلبون من الله أجاب (أبو حسن):

- ربما هذا طقس من الطقوس، حتى إن الناس تخشى قطع شجرة السدرة وإذا اضطروا في يوم إلى قطعها، فإنهم ينحرون ذبيحة أو طيراً تحت جذعها، مخافة أن تصيبهم لعنه تضر بأبنائهم هكذا الناس تعتقد، أردف هاشم قائلاً:

- هناك على الشارع الرئيسي ثمة شجرة قد عقدت عليها خرق بالية بألوان مختلفة ونساء يضعن الحناء على ساقها.

أجاب الحاج:

- هذا ما وجدنا عليه آباؤنا يفعلون!! وفي عينيه التساؤل نفسه.

تمتم أبو حسن: "لا تبدل ما في الأعيان إلا إذا تبدل ما في الأذهان"[12]

استأذن الحاج (عبد نجم) لمغادرة المقهى على أمل أن ندعوه في جلسة سمر ليحكي لنا حكايات الماضي عن تاريخ القرية بأسلوبه الجميل وفكاهته وأمثاله وما سمعه من أبائه والمعمرين من القرية مجيباً:

-إن شاء الله (إذا طيبين)

[12] هاشم صالح/مدخل الى التنوير الاوربي

"كويرش"

تململ أبو زيد في جلسته وقد استهواه الحديث وكأنه أراد أن يستعرض بما يحفظه من كتب التاريخ كونه مدرساً متقاعداً متحدثاً عن آثار بابل والقرية الملاصقة لها قرية (كويرش) عن أصل تسميتها قائلاً:

-نسبة للقائد كورش (كورش الكبير أو قورش الكبير) أول ملوك فارس (أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية. استولى على آسيا الصغرى وبابل وميديا، من تجليله وتقديسه حتى سماه في كتاب أشعياء «راعي الرب»

«هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي. لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني»[13]. ويرى البعض بأنه كان موحداً لله

أعجبهم حديث أبو زيد مصغين إليه بشغف مكملاً حديثه عن هذه القرية وذكرياته

[13] العهد القديم ككتاب عزرا، الإصحاح 1 وكتاب دانيال، (الإصحاح 6) وكتاب أشعياء، (الإصحاح 44 و 45)

وأردف قائلاً:

-كم كانت جميلة تلك الأيام حين كنا نذهب مجموعة من شباب القرية حيث شرع (جاسم الغصاب) وهو من أهالي قرية (كويرش) أبواب بستانه الذي جعله منتجعاً وهو رجل سخي صاحب مزاج وله صوت جميل، على شواطئ (كويرش) حيث النخيل و(سوابيط)[14] العنب ،حيث يصدح صوت السيدة أم كلثوم، حفلات شواء ولعب الورق وشرب العرق والسبح في الشاطئ ونرجع في أنصاف الليالي، متسكعين تتعالى قهقهتنا منتشين ثملين...

-يفصل (كويرش) تلال صغيرة بينها وبين معبد مردوخ.[15] وهو الإله القومي لبابل الذي تحقق على يده الانقلاب الذكوري وقتل الآلهة الأم البابلية الأولى (تياميت) وتفسيخ جسدها، وهي إحدى الثالوث الإلهي بعد ((آبسو) الإله الزوج و (ممو) الإله الابن) كما ذكرت في أسطورة الخليقة البابلية التي تعتبر أوسع وأعرق أسطورة خليقة أو تكوين في العالم القديم وبسبب عراقتها صارت مصدراً أساسياً لأغلب أساطير التكوين.

---

[14] سَوابيط : جمع ساباط ،السَّابَاطُ : سقيفة بينَ حائطيْن تحتَّها مَمَرٌّ نافِذٌ

[15] مردوخ : وهو الولد العظيم الذي أنجب من (الاله ايا) وزوجته الاله(دام) شمخ كالطود كان مديد القامة نظراته كالبرق ومشيته كالفحل رفع شأنه بين الآلهة زاد قدره عليهم فكان ارفعهم مقاما، اسبغت عليه الجلالة النورانية المهيبة. انجيل بابل : خزعل الماجدي

تحدث أحد الجالسين بصوتٍ خفيض خوفاً من العيون التي زرعها النظام، الله يلعن كل من كان سبباً في تهجير هذه القرية.. معقباً (خاف يجي يوم ويهجرونه)،

-هُجِرّ أهل القرية (كويرش) من قبل الحكومة وبني قصراً كبيراً، لجأ قسم منهم إلى قرية مجاورة (برنون) وهي من القرى القديمة يحيطها تلال وفي وسطها بعض المستنقعات جاءت تسميتها، عن رجل استوطنها من أصل فارسي اسمه (برنون) ثم رحل.

- نزح إليها بعض من عشائر (شمر) (وديلم)، ردمت بعضها وبقي بعضها الآخر، مستنقعات مستغلة من قبل رعاة الجاموس التي تعتبر أحد مصادر عيشهم حيث يبيعون الحليب والقيمر قاطعه أبو علي ضاحكاً:

زار (صدام) هذه القرية ثم التقى بامرأة عجوز سألها عن المنطقة فأخبرته بأنها (برنون)، لم يعجبه هذا الاسم حيث كانت الحرب مشتعلة بين العراق وإيران) اجتمع مع بعض العشائر والمسؤولين المتملقين اقترحوا عليه اسم قرية صدام فقال: هناك شيء أكبر من صدام وهي القادسية فسميت بهذا الاسم حتى سقوط النظام، شيدوا صورة ضخمة له من الحجر الثمين في مدخل القرية يتناوب عليها حراس من (الرفاق)[16] ليلاً ونهاراً، سألته:

[16] الرفاق تسمية تطلق افراد الحزب

- لم ضحكت يا أبو علي حين سألتك عنها؟ قال:

- لأني استذكرت حكاية مضحكة مبكية، في إحدى الأيام كان (الرفاق) يحرسون هذه الصورة في وقت إفطارهم مرقت سيارة خصوصي سريعة بالقرب من الصورة فأخرج أحدهم كيساً وقد ملأه (غائطاً) ورمى به أعلى الصورة، تلطخت تلك الصورة، تركوا إفطارهم ودخلوا في أقصى حالات الإنذار فلا يعرفون كيف يزيلون تلك (اللطخة) مرتبكين صار يحمل أحدهم على كتف الآخر حتى يتخلصوا من هذه المصيبة التي حلت عليهم في هذه الليلة قبل أن يصبح الصباح وإلا تقلب القرية (عاليها سافلها).

"هاشم"

كان هو العصر حين خرج هاشم من بيتهم العتيق بعدما ضجر من المكوث وقد بُعثرت قصاصات ومسودات مشروع روايتيه (التيه بين المقدس والمدنس) مرجئاً إكمالها، تناص قرآني من قصة التيه الحاصل في بني إسرائيل (تيه مكاني) ولكن أبطال روايتيه يعيشون (تيه فكري) بعض بأسمائهم الصريحة وبعض مستعار مستوحياً أفكاراً منها خيالية ولا تمت بالواقع بصلة، تلك السنين قبل رحيله عن القرية مستقلا عن بيت أهله... أحد أقدم البيوت في القرية سقوفه من جذوع النخيل، بناء ذو الاسيجة العريضة وأبوابه العالية وشبابيكه المقوسة والتي لم تصبغ بعناية ، كان يضع بعض الكتب الممنوعة في تلك الأقواس وقد أخفاها بقطعة من السجاد والتي رسمت عليها لوحة تعبر عن حالة الترف التي يعيشها الخلفاء في زمن الدولة العباسية متكأ على وسادة مع نديمة له تسقيه شرابا وبقربه قرد تزينه قلادة.

غرفتان ومضيف كبير (طارمة) بثلاث أعمدة، وقد علق على احداهما كف من الخزف الأزرق في وسطها عين عن الحسد وأسفله طلسم مرسوم على ورق من أرقام وحروف النبي سليمان[17]، في إحدى زوايا حوش الدار

[17] ((الطلسم، بحسب المعتقدات، يختلف عن التميمة في كونه لا يحمي فقط، إنما يُقدم إلى صاحبه طاقة وقوة خاصة في أوقات مرتبطة بانفتاح أبواب السماء والدورة الفلكية. من أشهر الطلاسم

(تنور طين) الذي طالما أكلوا خبزاً طازجاً من تحت أيدي أمهم ملتفين حولها وهي تسجره، كانت العصافير تضج على أغصان السدرة، تاركة مخلفات (الذروق) وريش على الأرضية.

سلك هاشم الطريق الترابي باتجاه ضريح (عمران) متأملاً كما يسلك (العارفين) مروراً بساحة كرة القدم المحاطة بين التلال أشبه بمقصورات المتفرجين في البطولات الرياضية التي تنظمها اتحادات الشباب، يلتقي الرياضيون عصر كل يوم لمزاولة التمارين، الساحة فارغة حيث أقامه الفريق حداداً على المرحوم (قتيبة) حارس المرمى الذي توفي على إثر سكتة قلبية.. فريق الجمجمة يضم مجموعة من الشباب، منير عباس، صائب كريم، راجح ظاهر، ميثم جهاد، محمد عباس، عباس علوان، كريم كنوش، رياض كاظم وآخرون، اقتربت من بستان الحاج محمود التي تبعد عن القرية حوالي فرسخين مجتازاً مقبرة الأطفال، كان المكان هادئاً تماماً إلا من صوت خشخشة سعف النخيل المكتظة، هيمن على وجدانه، أعاده إلى الماضي البعيد إلى طفولته

وأقدمها النجمة السداسية. المثلث المتجه إلى الأعلى يرمز إلى النار والسماء وطاقة الذكورة. والمثلث المتجه إلى الأسفل يرمز للأرض والماء وقوة الأنوثة. وبرغم ارتباط هذه النجمة بالديانة اليهودية، فقد وجدت على جدران معابد وفي جداريات السومريين كما أنها أحد رموز الهندوسية. ولوحظ أنها متداولة في التراث الإسلامي في إطار زخرفة المساجد منذ آلاف السنين. ويُعتقد أن لا شيء مستحيلاً لمن امتلك هذه النجمة السداسية بسبب الطاقة الكامنة فيها.))

استذكر حكايات جدته نجيه... حين كنا صغاراً نلتف حولها وهي تذكي النار في الصفيحة النحاسية تحكي لنا عن هذه المقبرة، من يمر من خلال هذا المكان عليه أن يتوخى الحذر من رمي الحجارة والعظام من الجن الذي يسكن المقبرة، فاغروا أفواهنا نستمع إليها بنهم شديد...

ثمة جلبة من الحمام تطير من تلك البستان أفزعته، حاول اجتياز الغابة بسرعة ارتقى التل حذاء النهر، كان المنظر جميلاً جداً حيث النهر (الحلة) الملتوي وهو يشق غابات النخيل، شمس المغيب وحمرتها القانية تترك أذيالها على شواطئ النهر، تنفس ملء رئتيه، مرات متلاحقة ملأها بشذا الأرض المعطر، ثمة قارب للشرطة النهرية يسير بعكس التيار من الجهة المقابلة يحدث دوائر تتسع باتجاه ضفة النهر حيث يجلس (كاظم غلوه) القرفصاء بيديه سنارة صيد يلعن صاحب القارب، أخرج سنارته عارية من الطعم، أصابه الملل، طوى خيطه، وهو يدندن بأغنية شعبية قديمة (يا صياد السمج صيد لي بنية) كان له صوت جميل ومن عشاق السيدة أم كلثوم ويحفظ معظم أغانيها وله القدرة على العزف بلسانه...

واصل السير باتجاه القرية من الجهة الثانية بالقرب من نهر صغير يسمى ب(النهر الصافي) أو نهر العشاق، ساقية كبيرة تفرعت من شط الحلة، عند دخول الماء فيه وبعد مسافه يصبح صافياً لكثرة ما ينبت على ضفافه نباتات من الدغل والحشائش، وعلى ضفته شجرة التوت الكبيرة بظلها الوارف

بعيدة عن بستان النخيل... وحيدة تلك الشجرة كأنها مطرودة، يلجأ إليها بعض الشباب للعب الورق أو يتناولون الكحول الرخيصة (العرق)، مكان متطرف نسبياً عن القرية، لم يكن ثمة أحد سوى شاب رث الثياب بلحية كثة:

- نعم، عرف قصته المأساوية...

لم يفارق مخيلته مذ كان صغيراً، تمرد عدنان على أبيه قاصداً عقه و أغاضته، أراد أن ينتقم لإخوانه وأمه، الأب السيئ شديد المراس في أهله، يضرب أطفاله بشدة ويعنف زوجته المسكينة تحتمل كل ذلك من أجل أولادها، شردهم لسنين، عادوا إلى بيتهم، أول ما بادر في ذهنه من سلسلة التمرد والانتقام، واظب على احتساء الخمر حتى يعود ويفرغ ما بجعبته من شتم ولعن الأب وإن كلفه ذلك الضرب المبرح الذي سوف يتلقاه من الأب، وبالرغم من أنه لم يعد صغيراً فهو شاب متزوج وله أطفال، كل ذلك لم يشفِ غليله، تظاهر بالجنون، هجر البيت سكن التلال والكهوف، امتلك ناصية العناد والتمرد، بيد إن جسده الذاوي الآخذ بالذبول، شعره الأشعث ولحيته الكثة بملابسه الرثة، آيل إلى الوقوع في مهاوي الأذى، رؤيته تدعو إلى الشفقة، يحّمل الناس اللوم على أبيه وما فعل بهم... أعجبه الدور، هرب إلى واقعه، يرى نفسه عاقلاً ويرى الآخرين هم المجانين.

ربما يرى البعض جنونه حرية من الكثير من القيود كالعادات والتقاليد والقوانين وكما يقول:(بيكسوس كازانتزاكيس) (قد يحتاج الرجل الى القليل من الجنون حتى يتسنى له قطع ذلك الحبل ليصبح حراً)[18]

واصل هاشم استطلاعه أطراف القرية وكأنه يراها لأول مرة وإلى النهر الذي يفصل القرية عن القرية المقابلة

ففي الجهة المقابلة للنهر قرية (سنجار)، فبرغم حالات الشجار وحربهم التي اتخذوا من لسانهم مدافعاً ولغة الحوار رصاصاً، إلا أنّ هناك بعض علاقات العشق بين الطرفين قد تصل إلى الزواج، سمعت يوماً (الحاج أبو قابل) يصف حالة تحرش بين الصوبين مازحاً وهو معروف بفكاهته يقول:

-كان رجلاً يقود حماراً يهمُّ الى ربطه بشجرة قريبة على الشاطئ ثمة امرأة في الجانب الآخر ترتدي ثوباً أحمر تنادي على الرجل:

-(عمي أبو مطي... عمي أبو مطي آني خايفة) قال لها:

-(ليش تخافين ؟ قالت أخاف تربط (المطي) وتعبر الشط) قائلاً:

-عمي (أني بهذا الصوب وأنت بذاك الصوب) وبعد لحظات عاودت صيحاتها:

[18] كاتب وفيلسوف يوناني، اشتهر بروايته " زوربا اليوناني " التي تعتبر أعظم ما أبدع، اشتهر عالميا بعد عام 1964 حيث أنتج فيلم " زوربا اليوناني " للمخرج مايكل كاكويانيس والمأخوذ عن روايته

-(عمي أبو مطي ... عمي أبو مطي أني خايفة)، كرر عليها القول (ليش خايفة) إني بعيد عنك، قالت بصوت رقيق لا (مو أني حلوه وثوبي أحمر) أجابها:

(شلون أعبر الشط الجو بارد)، حاولت إغراءه وتحريك مشاعره حتى يعبر ردت عليه بغنج (مو أنت شاب قوي وخاف تعبر)، ارتفعت حرارة الرجل وزادت عزيمته صار يربط حماره ويعبر الشاطئ بذلك البرد القارص ويردد: رايد حضن دافي

توقف هاشم بالقرب من الصف المتوازي للنخيل الشامخة، حيث كانت النساء يحملن أطفالهن على أذرعهن، بينما مجموعة من الشباب يخرجون بذور عباد الشمس من كيس ويضعونها في أفواههم ويبصقون القشرة، يأكلون بأناقة مصدرين نوعاً من الصفير، ثمة أطفال يسبحون في حافة النهر (الشريعة)[19].. جواميس عبود المرزة تقاد من زرائبها باتجاه الشاطئ والغربان ماتزال جاثمة على مؤخراتها، صبايا يحملنَ قِرب الماء، لأن القرية طالما عانت من شحة الماء لسنين طويلة ، نساء يضعنّ الشموع في ماء النهر يطلبنّ (المراد) ينتظرنَ غائبا يعود، فكلما سمعنَ معركة جديدة نشبت على الحدود هرعنَ إلى الشاطئ أو إلى ضريح الإمام يتوسلنَّ وينذرنَ النذور،

[19] الشريعة حافة النهر فسحة عريضة ممتدة للشاطئ ليس بالعميق يجلب منه الماء وتغسل النساء الاواني

وعادات ومعتقدات أخرى كانت النساء يعتقدنّ بها هي (حجارة الدرب) وهي إن المرأة التي تنتظر غائباً زوجاً كان أو أخاً أو ابناً، تخرج عند الغروب تجلس القرفصاء وتلتف بعباءتها في رأس الزقاق ترمي الحجارة على قارعة الطريق وتستمع إلى كلام الذاهبين والعائدين في داخل القرية، تتفاءل حين تسمع بعض المفردات التي تعبر عن بشارة أو عودة أو الرجوع السريع تأول ذلك الكلام، إن الغائب بخير وإنه سيعود قريباً من الجبهة هكذا الناس تعتقد، على نياتهم. عادت جميع النساء إلا سعاد ثمة شيء يعتصر قلبها.

"سعاد"

أدركت سعاد أنها شاردة الذهن، تقلب السؤال نفسه في رأسها مرة بعد أخرى، انتابها إحساس عميق بالفشل كأم، تمنت لو كانت أشد ثقة بنفسها، يشرع أطفال الجيران يلعبون، بينما تنهمر دموعها بين حين وآخر انفجرت باكية، تتالت الصور في ذهنها مثل فلم. تعاقبت عليها ذكرياتها وأفكارها السوداوية والحزينة كتعاقب الخرز في المسبحة حين فُقد ابن أختها...

-ليس كعادته المجيء مبكراً، كان فرحاً يلعب ويقفز هنا وهناك، كان طيراً جميلاً، يتفوه بكلمات الأطفال مبتدئ النطق يلفظ السين ثاءً والطاء قافاً، كم كانت جميلة في فمه، الرابعة من عمره ذا شعر أشقر أبيض الوجه مستدير ليس ببعيد حين افتقدناه، خرج من البيت ولم ينتبه إليه أحد، بحثنا عنه في كل مكان؛ النهر كان قريباً من قدره، نعليه وكرته الصفراء كانت طافية في الماء.

استذكرَت فقد أخيها الصغير وهي تتطلع إلى أمها المفجوعة حين هَرَعَتْ مُسرِعَةً باتجاه الصوتِ القادم، حَاوَلَتْ انتزاعه من فمِ المَوت وَضَعَته في حجرها، غَمْغَمَتْ بصوتٍ خَفيض، دل..لو .. يالولد يابني... نادتهُ باسمهِ، دارَ عينيه نَحوها، سالت دمعة... رَفَعتْ رأسها إلى السماءِ؛ احتبس صوتها ...

استذكرت أيامها المرّة كالحنظل وصبرها مع زوجها فلاح :

ـ كانَ السكون شبيها بما يسود لوحة من لوحات الطبيعة الصامتة، متشحة بحزن، بدت الأشياء أمام عينيها غائمة الصورة، بتلك العينين الكئيبتين والشفتين الشاحبتين تذرع باحة الحوش جيئةً وذهاباً، بينما كان زوجها فلاح متوسداً ذراعه يفكر في ملء هذا الفراغ القاتل وهذا الصمت المقيت، يئست تماماً من أن يكون لها أولاد، ربما لتقدمها بالسن، ولطالما طرقوا أبواب الأطباء وحتى السادة والعرافين، إلا أن زيارتهم لأحد الأولياء ووقوفهم على بابه متضرعين يطلبون أن يرزقهم الله بذرية كان سبباً لانفراج جزءٍ كبيرٍ من وضعهم، الطفلة التي تبنوها بعد أن عثروا عليها في ذلك اليوم والتي لم تستطع أن تعّرِف عن أهلها لصغر سنها، ارتسمت ابتسامة مفعمة بالسعادة، إلا أن فرحتها لم تدم طويلاً وسوء حظها عاد من جديد، وبُعيَد أكثر من سنه جاء أهل الطفلة بعد عناء السؤال، أصيبت بصدمة نفسية، في لحظة يأس، متبتلة، تقطعت بها الأسباب، صعدت سطح الدار، أسفرت شعرها، كشفت صدرها، رمقت بعينها السماء، زمجرت، أومض برقها، جادت السماء، تدفق الماء، ربت واهتزت، بيد أن علاج الصدمة بالصدمة كان سبباً أن ترزق بولد وبنتين.

حاول هاشم أن يهون عليها مصيبتها بكلمات يطيب خاطرها عليك أن ترجعي إلى أطفالك فالدموع التي ملأت مقلتيها منعتها من رؤيته إنما سمعت صوته...

-ما الذي يبكيك؟

أجابته وهي تكاد أن تغص بدموعها:

- مضى عليه أكثر من ستين يوماً في الجبهة، لم يصلنا أي خبر، أجابها بحزن شديد:

- بين ساعة وساعة فرج

صوت الأذان المتعالي بصوت الحاج محمد، الجهوري عاد به إلى البيت.

"وطن حر وشعب سعيد"

على مشارف القرية مدرسة (عمران) قد شيدت في الخمسينيات من القرن المنصرم تعاقب على إدارتها من نفس القرية عباس هوبي حسن الحسناوي وحسين علوان وفاضل منخي وخليل إسماعيل ومن أفاضل الناس الذين لهم مكانتهم وشرفهم ومهابتهم،

استذكر هاشم المعلم علي محمد البصير، وقد استندَ إلى عصاتهِ الخيزران، راحَ يشقُ طريقهُ نحوَ إدارة المدرسة، وبتلك النقرات المستمرة على الأرض نوعاً من الشيفرة تسمح له بتحديد طريقه، ملتزماً الصمت، كانت وجنتاه تحت نظارته القاتمة أشد شحوباً، وقد ارتسمت صورة حديقة المدرسة على العدسات، سمعه كان حاداً، يوحي بأنه يستوعب العالم الخارجي عن طريق أذنيهِ، نعمةٌ عوضهُ الله عن تلك العينين،

كان بصيراً في زمن عميت فيه البصائر، حينما يفضي إلينا بحكاياتهِ ونحن فاغرو أفواهنا، نستمع إليه وهو يتلو لنا ما تيسر من آيات الذكر الحكيم (اقرأ .. ما أنا بقارئ) بمقامٍ يتخيل إلينا.. هكذا هو صوت الوحي.

يذكرني منظره بالمكفوفين الذين خلدهم التأريخ بشار بن برد[20] وأبو العلاء[21] المعري وطه حسين[22]...

ثمة مستوصف صغير بمحاذاة المدرسة فيها شيد في الستينيات من القرن الماضي، فيه المعاون الطبي أبو عامر لم يكن من أهل القرية لكنه استطاع أن ينفذ إلى قلوب أهلها بتفانيه وصدق تعامله متواصلاً معهم بأفراحهم وأحزانهم وعلاقاتهم الاجتماعية، كان محبوباً، وخدوماً، بتلك الحبات الطباشيرية والعلاج البسيط يشفى المريض، هكذا اعتاد عليه أهل القرية.

---

[20] بشار بن برد بن يرجوخ (وقيل بهمن) العُقيلي،كني بأبي معاذ. وكان يلقب بالمرعث، قيل أن من أجداده من كانوا ملوك الفرس، وفي نسبه الوارد في ديوانه بعض ملوك الفرس، ولذلك كان بشار يفتخر بنسبه في أكثر من موضع من ديوانه كما في قوله :

أنا ابن ملوك الأعجمين تقطعت علي ولي في العامرين عماد

وأصله من فارس من أقليم خراسان كما يفتخر بذلك في قوله :

وإني لمن قوم خراسان دارهم كرام وفرعي فيهم ناضر بسق

[21] أبو العلاء المعري (363 هـ - 449 هـ) (973 -1057م) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، شاعر وفيلسوف ولغوي وأديب عربي من عصر الدولة العباسية، ولد وتوفي في معرة النعمان في محافظة إدلب وإليها يُنسب. لُقب برهين المحبسين أي محبس العمى ومحبس البيت وذلك لأنه قد اعتزل الناس بعد عودته من بغداد حتى وفاته.

[22] طه حسين (1306 هـ / 15 نوفمبر 1889 - 1393 هـ / 28 أكتوبر 1973م)، أديب وناقد مصري، لُقب بعميد الأدب العربي. غيّر الرواية العربية، مبدع السيرة الذاتية في كتابه "الأيام" الذي نشر عام 1929. يعتبر من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة. لا تزال أفكار ومواقف طه حسين تثير الجدل حتى اليوم.درس في الأزهر، ثم التحق بالجامعة الأهلية حين افتتحت عام 1908، وحصل على الدكتوراه عام 1914 ثم ابتعث إلى فرنسا ليكمل الدراسة. عاد إلى مصر ليعمل أستاذا للتاريخ ثم أستاذا للغة العربية. عمل عميدا لكلية الآداب، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية، ثم وزيرا للمعارف. من أشهر كتبه: في الشعر الجاهلي (1926) ومستقبل الثقافة في مصر (1938).

أخرجت بعض المحلات المواجهة للشارع جزء يقتطع من بيوتهم للبيع مايحتاجه أهل القرية، ثمة محل صغير أخرجه من بيته (حسين كاظم إسماعيل) والذي بترت ساقه في حرب الثمانية أعوام، التي حصدت وأعاقت الكثير من الشباب، أعدته عندما خرج من المشفى إلى بيته جلبت له معي بعض الكتب والقصص مطبوعات دار التقدم وقصص مختارة من الأدب الروسي، يقضي ذلك الفراغ القاتل طوال مكوثه.

المثقفين في ذلك الوقت هم الشيوعيون، كانت لي معهم علاقات طيبة كنت أستعير منهم بعض الكتب والروايات، دفعني الفضول لمعرفة أفكارهم استهوتني بعض كتب ماركس عن المجتمع، في الاقتصاد والسياسة والمعروفة باسم الماركسية. صار حلم الشيوعيين في القرية تحقيق هدفهم الذين يلتقون سراً يتبادلون أفكارهم شعارهم (وطن حر وشعب سعيد) بعيدين عن عيون البعثين. قد يختلفون مع بعض الأفكار الإسلامية إلا أنهم يلتقون بمعاناة واحدة من قبل سلطة البعثيين ويحلمون بالخلاص، يرون أن الدين مخدر يتعاطاه الناس يرممون ضعفهم وعجزهم بقوة إلٰه قادر، وهذا رأيهم وقد يرى الإسلاميون أنه سبب للثورة والإصلاح.

ميثم

ربما كانت المرة الأولى حين التقى ميثم مع هاشم بشكل مباشر وبكلام مفتوح ربما لانه أكبر منه سناً أو لاختلاف ميولهم إلا أن هاشم يكن له كل الاحترام لما يراه من صفوة المثقفين، تحدث إليه ميثم بلوعة وحزن قائلاً:

-كنا في أول شبابنا في القرية لا توجد أي ميول للبعث ربما ما عشناه ونحن صغار في الابتدائية وما فعله البعث والحرس القومي بمداهمة البيوت وجر الناس للتحقيق والتعذيب. كان معلمنا المرحوم محمود ماشي، أثناء الدرس هجم عليه البعثيون والحرس القومي وانهالوا عليه بالضرب وتمزيق قميصه ثم اقتادوه إلى مفارزهم المشبوهة. وفي الإعدادية أعلن أصدقاؤنا من البعث مقاطعتنا لعدم انتمائنا للبعث مع المراقبة والمضايقة وكتابة التقارير، في الجامعة زادت المضايقات علينا واقتادوا سليم جاسم والمرحوم حسن طاهر إلى الأمن بعد أن أنزلهم (جمجماوي) شرطي الأمن من باص المصلحة وانهال عليهم بالضرب وتم تعذيبهما بوحشيه إلى أن أمضى على ورقه تعهد بعدم الانتماء لأي حزب عدا البعث وكانت تسمى المادة ٢٠٠ سيئة الصيت. في العسكرية لم نشمل بالضباط الاحتياط وبعد إنهاء دورة الدروع أُحلت إلى شرطي حدود في المثلث العراقي التركي الإيراني. لم يسمح لنا بإكمال الدراسات العليا كما لم يسمح لنا بالعمل بسلك التعليم العالي.

عام ٧٩ وبعد حكم صدام بأسبوع ألقت مفارز البعث القبض عليّ وكان الأغلبية العظمى من الجمجمة، معصوب العينين علقت بحبل قد تدلى من السقف عارياً تماماً، وقد غطت الكدمات والجروح جسدي، تورم وجهي وزرقة حول عيني، شد سلكاً ينتهي بقرّاصتين معدنية ألصقهما على خصيتي، ضغط على زر الجهاز، ارتعدت وأطلقت صرخات، تكرر الصعق عدة مرات، توقف عن الصعق، أردف ضابط التحقيق قائلاً:

قسماً بالله إذا لم تستجب لمطالبنا (يابن الق ..حبة) سأمر المفوض أبو عقرب...! مفهوم، لم يصلوا إلى نتيجة للإمضاء على المادة ٢٠٠ أو الانتماء للبعث، رفضت رفضاً قاطعاً رغم الكلمات النابية.

تم تسليمي إلى أمن بابل. شُلّت يدي اليسرى وَصُمّت أذني اليسرى بعد تمزيق طبلة الأذن تماماً ونزف كلوي وضرب بالشفرة في مثانتي وبقيت أعاني من العوق لهذا اليوم. حُلمُنا كان أن نخلق جيلاً مثقفاً وواعياً وفعلاً أغلب من وصلوا الجامعة من القرية هم الشيوعيين، ازدادت عيون أصحاب الملابس الزيتوني وكثرت تقاريرهم للشعبة الحزبية ما من صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، لم يسلم منهم أحد لا الشيوعيين ولا الإسلاميين ولا حتى بسطاء الناس الذين يدخلون الجامع لغرض الصلاة ف (حسين علي) كان إنساناً بسيطاً تردد إلى الجامع أكثر من مرة كتبوا عليه، اقتادوه من بيته والى اليوم لا يعرفون أين هو بأي حفرة أو مقبرة جماعية ... استطرد ميثم وبلسانه السليط:

- (الحكومة إلي تخاف عمران وتعدمه (شنو) من حكومة) لم يتخلَ من رمي كلماته كالحجر غير مبالٍ بالرغم ما واجه من تعذيب وسجون،وأردف قائلاً:

- عمران كان شاباً بسيطاً فقيراً قد تخلف عن الخدمة العسكرية كان يركب فرساً وغالباً ما يكون في البساتين بعيداً عن الناس لم يؤذِ أحداً إلا أنه لم يسلم من تقارير البعثيين إلى الشعبة الحزبية وعيون المخبر السري.

أعدم رمياً بالرصاص أقيم له مأتماً بالسر ودفعوا أهله ثمن الطلقات الذي أعدم بها غرامة على أهله لأنه في نظرهم لا يساوي ثمن الطلقات متمتماً:

- هكذا كانت حرمة الإنسان.

ذكريات

عادَ هاشم بقدميه المتثاقلتين من جراءِ العمل المضنى من الصباح إلى المساء في دكان البقالة، الذي بحّ صوته لجلب انتباه الزبائن كل ما كسبه لم يكف ثمن دواء أمه المصابة بالمرض المزمن. ما عاد يتحمل أعباء عائلته الكبيرة التي قصمت ظهره وإن الدنانير القليلة لم تسد رمق تلك الأفواه والتي تبدو كأرانب، شهادة ورقة على جدار لا تجدي نفعاً..

امتد نظره نحو الأفق الملوث بحمرة قانية كعجل مذبوح تلفظ احتضارها الأخير تاركة أذيالها أعلى الغابات المكتظة ،كان الهواء ساكناً نقياً بارداً والفضاء مفتوحاً، ثمة صوت لطقطقة حذائه على رصيف الشارع المؤدي إلى القرية الذي يلتف حول البحيرة كربطة عنق جميلة وزاهية، أنزلَ كيس الخضار وبعض الفواكه ليستريح قليلاً على الحافة الصخرية للبحيرة، أشعل سيجارة، نفث الدخان بقوة جال نظره صوب النوارس المحلقة وبعض طيور الماء التي تغوص هنا وهناك، تلك البحيرة كانت بستان عامرة بالنخيل المثمرة بألوان التمور (الخستاوي والحسناوي والبربن) تعود إلى الحاج (عمران الشلال) لكنها شملت بالحملة تحت شعار (أحياء مدينة بابل الأثرية) حيث نقشت (نص) على جدران البناء الجديد لبابل "شيدت في عهد القائد صدام حسين"، أُنشِئت بحيرات وثلاث جبال صناعية، تموز،

نيسان، وجبل صدام، تم تشجير الجبل بشكل متدرج وكانت تسقى بالتقطير بواسطة مضخات ضخمة، تحت كل جبل بحيرة صناعية ، ثمة تلال متفرقة. وعلى بعد فراسخ قصر الحاكم الذي شيده على قمة (جبل صدام) وأضواؤه المتراقصة على تموجات المياه التي أحدثتها حركة الطيور السابحة على ضفاف ثمة عبق جميل تحمله ريح الشمال .. عطر إثارة فيه نشوة كبيرة بعثت في نفس هاشم لحظة تأمل يندفع وراء خياله خارج محيطه وظروفه الشاقة حيث حلق بعيداً:

سناء.. سناء .. لن أنسى تلك الأيام الجميلة حياة الطلبة، أروقة الجامعة أتذكر حين كانت تطيل الوقوف أمام لوحاتي، معرضي الشخصي الأول والتي لم يتم المصادقة عليه إلا أن تعلق رسم صورة شخصية للرئيس مطابقة للمواصفات، ولوحات أخرى على الخشب بالألوان الزيتية وعلى الورق المقمش وبعض الرسوم تخطيط بالقلم الفحمي لوجوه فلاحات وعمال كادحين طابعها الواقعي أو ربما تظهر طابعي القروي،

كانت تبدي اهتمامها وقد دونت بعض ملاحظاتها في سجل الزائرين، طيبة جداً كان جمالها هادئاً يتوغل في الروح، رقيقة، وجهٌ طفولي ذو السحنة الحنطية، عينان واسعتان تحت حاجبين نحيفين، أنف صغير يعلو شفتين صغيرتين باسمتين وكأنها فتاة صينية، ذات شعر أسود يسيل على كتفيها، من عائلة ثرية مثقفة. تحب الشعر والموسيقى تتكلم الفرنسية والإنجليزية. اهتمت بي كثيراً وكانت تأمل أن أكمل دراستي العليا وتحثني على ذلك تهيأ

لي المحاضرات والكتب المصدرية. كانت تنقل أخباري إلى أمها أول بأول، أتذكر عيد ميلادها وقد أهديت إليها ديوان محمود درويش، حيث كانت تشاركني الأكل في كافتيريا الجامعة ونستمع إلى موسيقا وأغاني ماجدة الرومي، وقد أهدت لي شريطاً للمغنية المصرية لنجاة الصغيرة وأغنيتها (أنا بعشق البحر)..... كان حلمها أن أكون فارس أحلامها.. كنت مثالياً وقد أفرطت في مثاليتي لاختياري الانفصال عنها بسب الفقر.

أولاد عمران

تبدو القرية أكثر هدوء في هذا الوقت، ثمة أصوات نقيق ضفادع عند ضفاف الأنهار الصغيرة وخوار أبقار وثغاء ماعز وروائح شواء وطهي يدغدغ منخريه مما يزيد من خطاه اتساعاً، يطيل هاشم نظره إلى قريته وكأنها طفل مدلل نائم بين أحضان التلال وأشجار النخيل المكتظة والمحيطة بها، وهي أرض منبسطة ومنخفضة عن مستوى الشارع الرئيسي تنتهي إلى شاطئ نهر الحلة، مدى مستوٍ لبيوت بسيطة ومتواصلة بخطيين متوازيين حتى أن الأمطار في بعض الأحيان كانت تسقط من خلال السقوف الخشبية.

وإن معظم سكانها يواظبون على زياراتهم ضريح الإمام عمران الذي اختلفوا في تسميته فقد حذف الألف والنون من اسمه حسب تعليمات وزارة الأوقاف، كان يخرج بعضهم إلى رسم الحرفين المحذوفين في الليل خلسة على القطعة المكتوبة بالاسم الجديد؛ لأن الناس معتادين على تسميته القديمة وبقي على الاسم الجديد حتى سقوط النظام في زمن الاحتلال عادت الألف والنون إلى اسمه، في أيام ليالي الجمع ومزاره المشرف على القرية من أعلى التل بأيدي ملكوتيه أباً روحياً وبتضرعهم له وعند محرابه. كان موقع القبر أخفض من صحنه يهبط الزائر بضع درجات كأنه قبو لا يتسع السلم

إلا لشخص واحد كان يسبب حرجاً للزائرين من النساء والرجال، يغطى الضريح براية خضراء، يعلو الضريح قبتان مغلفة بالكاشي الأزرق، ضجيج عصافير السدرة الكبيرة بظلها المديد، يجمع السدنة والخدم أوراق السدرة المتساقط يوزعونه على الزائرين للبركة، وبالقرب منها بئر عميقة، محاطة بسياج وقد لطخت أبوابها الخشبية بالحناء من قبل الزائرين فهم لا يتوانون من أخذ أوراق السدرة وأن يغترفوا من ماء البئر للشرب أو الاستحمام ، لاعتقادهم بالشفاء، عدها البعض إحدى كرامات ذلك الولي، تعلق أبناء القرية بهذا الضريح؛ الكثير من أبناء هذه القرية والقرى المجاورة تسمي أبناءها على اسمه حتى أطلقوا على أهل القرية (أولاد عمران) فهم إذا أرادوا شحذ الهمم في عمل جماعي أو التصدي للصوص ينادون ويتفاخرون بقولهم (حيهم أولاد عمران) نداء يهز المشاعر ويثير النخوة في الحالات الطارئة من غريق أو حريق أو سرقة ، سمعت من (الحاج ابو قابل) قائلاً:

في إحدى الليالي كنا نحرس القرية أنا (وحسين الداوود سمعنا صوت ناجي الشكر (حيهم أولاد عمران) عندما تفقد بقرته في (المراح) فلم يجدها

هرع أهل القرية يحملون المشاعل والفؤوس على شكل مجاميع مطاردين اللصوص وبعد ساعة قبض على السارق، عدنا بالبقرة وسط الأهازيج (جبناها الحمرة محناية).

القيمين على المزار يتناوبون أسبوعياً على خدمة وإدامة الضريح حتى صارت وراثة وقد انتقلت من جيل إلى جيل فهو يعتبر مصدر رزقهم بما يحصلون

عليه من النذور والهدايا ومنهم من صار يقصدهم الناس البسطاء للاستطباب لديهم، يكتبون الأحراز والأدعية لمرضاهم. ومنهم من امتهن دفن الأموات من الأطفال في مقبرة مجاورة للضريح. ثمة رجل قد اتخذ أحد الزوايا في باحة الضريح سكناً، كان حليق الرأس تماماً بملابس قد رقعت في أكثر من مكان يجمع بعض الصرر والأكياس، يبدو شكله ليس من (القوام) على المزار، سأل هاشم القيم الحاج حمزة عن الرجل...

أهو من المتسولين؟،أجاب:

-هجر بيته واتخذ طريق الزاهدين لا يستعطي من أحد فيه من الانفة وعزة النفس يحاول التمنع بإصرار شديد عندما تقدم له هدية أو طعاماً أو ما شابه، عاش على ما يحصله من راتبه التقاعدي يواظب على قراءة القرآن لا يختلط مع الناس، لم يعجبه انفتاح الناس ومن ضمنهم أهله وعياله وقد يراه خروجاً عن الدين والقيم. أجابه هاشم:

-ولكن الناس قد تغيرت عقولها وأنّ ما كنا نعتقد به بالأمس غير الذي نعتقد به اليوم، كنا سابقاً إذا نظرنا إلى الشمس وحركتها من الشروق إلى الغروب نظن أنها هي التي تدور ولكن تبين اليوم بعد التطور العلمي أن الأرض هي التي تدور وأن الشمس ثابتة فيكون الليل والنهار.ثم أردف هاشم قائلاً:

-ألم يخرج الناس يوماً يطرقون على الصفائح منادين (يا حوت البلاعة هدي قمرنا بساعة) ظناً أن القمر قد ابتلعه الحوت وقد أثبتها العلم ظاهرة خسوف القمر.

-أجاب الحاج وهو ماسك مكنسة كبيرة مزيحاً أوراق السدرة المتساقط يقولون: إن النبي دانيال استطاع أن يرد الشمس.

-ربما هذه معجزة الأنبياء، ولو كانت حقاً لذكرها القرآن، ألم يذكر العديد من المعجزات،

صمت الحاج مجيباً: الله أعلم.

"طلع صفر جانه ربيع يا محمد يا شفيع"

اقترب هاشم من دارهم الهرم الذي يتوسط بيوت القرية من الجهة المقابلة للمزار من جهة الشمال الذي طالما ناجته هذه العائلة وقدمت عنده النذور... وما إن هبط إلى الشارع الذي يشطر القرية إلى نصفين متساويين مجتازاً أزقة القرية الضيقة (المجاز) على اليمين واليسار، إثارة فضوله باب عريضة وقد لطخت بالحناء خط عليه مرقدين (أيمن وأمين) استغرب من هذا الأمر قائلاً: ألم يكن هذا بيت ومتى ظهر المرقدان، أطال الوقوف عند الباب منتظراً أحد القادمين يحث الخطى رجل يقال له (الخال) وهو يعرف كل ما يدور في القرية سأله متى ظهر المرقدان قائلاً: إن صاحبة البيت قد طافا عليها في عالم المنام ، ظهرفي هذه الفترة الكثير من المراقد الوهمية اعتماداً على الرؤية وتصديق الناس للجهل والاعتقادات معتمدة على الخرافة والأسطورة وإن الأوقاف لم تصادق عليهم كون الاسمين المذكورين لم يثبت وجودهما. واصل السير في طريقه إلى البيت منهمكاً في (المجاز) الضيق، ثمة شيء يسقط أمامه من على أحد السطوح سمع صوت تكسر (جرة من الفخار) مملوء ماء وتناثر قطع نقدية مصحوبه بصوت جارتهم

(أم رياض) (طلع صفر جانه ربيع يا محمد يا شفيع)[23] لأن الناس يعتبرون (محرم وصفر) أشهر نحس

وصل عند ناصية الدار التي تعلوه نسبياً منحدراً بثلاث سلالم .. استقبله أبوه بالترحيب قائلاً:

- الله يكون بعونك يا ابني .. إن شاء الله بخير

- الحمد لله

أبو هاشم في الستين من عمره قصير القامة ذا وجه طليق مستبشر بلحيته البيضاء كالثلج يعلو رأسه طاقية بيضاء وقد ترك الزمن آثاراً حول مقلتيه، مستلقياً كان من دأبه يحرك مؤشر المذياع إلى اليسار وإلى اليمين ملصقاً سماعته على أذنيه وصوت الوشوشة لضعف الإرسال يستمع إلى الأخبار التي تثير حفيظة أم هاشم عند سماعها، كان محبوباً من قبل أبناء القرية وخاصة المثقفين منهم، غير متعصب ذو روحية الشاب، لم يكن لديه تحصيل دراسي إلا أنه كان متابعاً كل ما يدور في الساحة. كان صريحاً وجريئاً وناقداً لاذعاً مما يثير حفيظة بعض المتزمتين لذا كان له تأثير كبير على أفراد عائلته ونظرتهم الإنسانية والتي اتسمت بسعة الأفق.

- بارك الله فيك يا ابني.. الله يكون بعونك، صوت أم هاشم وهي تتربع على بساط أمامها صفيحة نحاسية مجمرة توسطها قوري الشاي، أم لعائلة

[23] طقس أعتاد عليه الناس عند نهاية شهر صفر وبداية ربيع أول

الكبيرة لم تبدُ كبيرة السن فهي أصغر سناً من زوجها كانت طيبة وبسيطة جداً حتى إنها إذا مرضت مجرد أن تضع تميمة أو صورة أحد الأولياء تحت الوسادة فإنها تشفى لاعتقادها الشديد وتمسكها وتضرعها وذرف دموعها. كما هو حال الكثير من نساء القرية اللواتي يؤمن بتلك الاعتقادات سمع هاشم إحدى جاراتهم وهي تقرأ لحفيدها:

(رقيتك بالله من عين خلق الله. من عين أمك ومن عين أبوك. ومن عين الجيران ومن عين اللي حسدوك. عين الصبي فيها نبي. عين الذكر فيها حجر. عين الحسود فيها عود. وعين الجار مقلوعة بنار. اخرجي يا عين كما خرج المهر من بطن الفرس. اللّٰهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآل محمد. اخرجي يا عين كما خرجت الشعرة من العجين. اللّٰهُمَّ صلّ على سيدنا محمد وآل محمد.")

لطالما كان الإيمان بالحسد والأرواح الشريرة وضرورة محاربتها والاحتماء منها منتشراً في بعض المجتمعات، وإن كان في تراجع مستمر.

الأساليب المستخدمة لإبعاد الشر أو لطرد الأرواح الشريرة، تختلف بين مجتمعٍ وآخر، أو بين ديانة وأخرى ولكنها تبدو متشابهة في كثير من الأحيان. تهيئ مستلزمات الطقوس كالبخور والزيت والماء.

زقاق الحاج "كريم أبو النفط"

تلاشت الأصوات التي كان الليل قد ضج بها، هدير السواقي وحفيف الأشجار وعواء الكلاب كانت القرية تستيقظ من نومها وينتقل صياح الديكة من بيت لآخر وتجاوب أصوات المآذن في القرى الصغيرة المجاورة، ثمة بعض حظائر كانت تصدر معزوفات حيوانية. كان هو يوم الجمعة لم يخرج هاشم فيه إلى دكان البقالة وحرص على أن يقضي هذا اليوم مع العائلة وأن يقتطع جزءاً من وقته في الصلاة عند مزار الولي ..أردف (هاشم) قائلاً:

- سأصحبكم إلى المزار تكون صلاتنا هناك.. ثمة عيارات نارية تصدر من وسط القرية، همّ للخروج لمعرفة ما يجري، حشد من الناس، أصوات أهل الزقاق المتعالي في أذنه وكأنها قادمة من كون بعيد عند زقاق الحاج (كريم ابو النفط) صاحب عربة يجرها حمار يبيع النفط، ولده ممدوح غارقاً بالدماء، يتفصد جبينه عرقاً، قال فيما يشبه الهمس وهو يتملى وجوه الحاضرين، ناظرين بأعين لا يرف لها جفون، فاغرو أفواههم بذهول، كان ممدوح لم يعرف أنّ هناك كبسة على الهاربين، دخل إلى البيت خلسة بعيداً عن عيون (رجال النظام) يأكل شيئاً ويرجع مع مجموعة الهاربين الذين رفضوا الالتحاق بالحرب والذي كانوا يختبئون بالقرب من البساتين المحاذية للشاطئ حتى إذا ما دوهموا فأنهم لا يبالون أن يعبروا النهر حتى لو كان الماء

بارداً، انقضّ عليه (الرفاق البعثيين) حاول الهرب من الزقاق إلا إن قاتله كان أقرب إليه بطلقاته الغادرة أودته صريعاً عند باب البيت بدمٍ بارد.. دفعوا أهله ثمن الطلقات كما كانوا يفعلون مع أهالي المعدومين وإقامة المأتم سراً، كان هارباً من تلك الحرب... في الحرب العراقية- الإيرانية خسر العراق كل احتياطه المالي.

بينما كنت أسير في شارع القرية الضيق وقع نظري على عربة يجرها حمار كان عليها (الحاج أبو قابل) رافعاً صوته وهو يتطلع إلى الصور الملصقة على الجدران قائلاً:

"شي يلمه" كلمة شعبية دارجة يراد بها (كيف تجمع) لكن ما من أحد يعرف ماذا يقصد إلا بعد حين

"يعني بذلك ملاين الصور لقائد الضرورة التي غصت بها الشوارع والدوائر والبيوت"

كان يتمتم:

-(لو يحكمنا يهودي) أو من أي ملة يخلصنا من هذا الضيم والقهر وأردف يقول:

-الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الجائر، كان الحاج من أشد الكارهين لنظام الحكم كان يرمي بكلماته ونقده وسخريته، ففي

إحدى الأيام كان راجعاً إلى بيته في عربته يضرب عجيزة حماره منادياً (حه .. حه) فإذا ما صادفه مجموعة من رجال النظام وهو يتلو قول الله تعالى: (يقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم ويقولون خمسة وسادسهم كلبهم) أراد بذلك أن أحدهم كلب تنكيلاً بهم.

كان هاشم يردد ويقول:

-كيف لنا الخلاص من هذا الواقع المؤلم ...

وفي يوم وليلة صارت جميع الصور في مهب الريح أكلتها انتفاضة الجياع حتى الصور التي نقشت على الحجر لم تسلم من مطارق الثائرين...

لكن قوات صدام تمكنت من استخدام مختلف أنواع الأسلحة لقمع انتفاضة الجنوب

"الرضوانية"

ما أن انتهيت من شكواي إليه ذكرني بالأيام القاسية:

- احمد الله يا هاشم نسيأ أنك خرجت من فم الموت الحقيقي.. أردف قائلاً وهو يفضي بهمومه:

- نعم أتذكرها جيداً ولم تفارق مخيلتي أبداً ..

كان يوم التحاقي إلى وحدتي العسكرية بعدما تأخرت على إجازتي خمسة أيام بسبب الفوضى وانتهاء العاصفة، عاصفة الدمار الهرج والمرج الذي عم البلاد على أثر غزو الكويت وهي واحدة من أسرع المعارك التي جرت عبر التأريخ حيث استطاع الجيش العراقي إحكام زمام الامور على الكويت كلها في غضون يومين فقط وبدون أي مقاومة تذكر، في الثاني من آب **1990** استفاق الشعب الكويتي على أصوات الدبابات والطائرات الحربية وجعل الكويت محافظة التاسعة عشر عقدت الأمم المتحدة اجتماعاً طارئاً لحل الخلافات بطرقة سلمية وإخراج الجيش العراق، السبب في الخلاف هو حقل النفط المشترك الرميلة حيث اتهم العراق الكويت وتحجج بأن العمال الكويتيين يأخذون بعضاً من نصيب العراق قام صدام حسين ببدء الغزو لكي يقضي تماماً على أي تدخلات في الحقول النفطية العراقية وعملية انسحاب غير منتظمة وتقهقر الجيش بحرب خاضها قوى التحالف

الدولي بقيادة أمريكا والتي دمرت القدرات العراقية العسكرية والاقتصادية حيث كانت الدبابات والدروع قد انصهرت وهي جاثمة على طول الشارع هدفاً مكشوفاً لطيران التحالف وسير الجنود حفاة على الأقدام كلما دخلوا مدينة أو إحدى القرى استقبلتهم العشائر بالخبز والتمر وبعض الانتهازين قايضوهم بأسلحتهم مقابل الأكل والشرب.

فرض حصار قاس على البلاد سبب مأساة إنسانية كبيرة دامت سنوات.

هدير (الرحى) تلك المطحنة الحجرية التي تلتهم حبوب الحنطة بيدي أمي قد أعادني إلى وعيي، نظرت إليها وجبينها ينز عرقاً ووجهها مائل للصفرة قد أعياها وتقوس ظهرها.. التي قد حرزت بعض منها، تلك الرحى التي يتناوب عليها الجيران لأنها من المعدات التي انقرضت وهي بمثابة تحفة أثرية قديمة اكتنزتها إحدى النسوة المعمرات جعلتها لخدمة الناس بقصد الاجر والثواب.

تتالت الأيام وحيث الشتاء القارس والجوع قد أخذ مأخذاً من أجسادنا متكورين خائفين في منتصف مارس **1991**: اندلاع انتفاضة واسعة في الجنوب والشمال ضد الحكم وتمكن الثوار من السيطرة على أجزاء واسعة من البلاد، نشبت انتفاضة الجياع وتوجه الناس إلى مخازن الحبوب ومخازن الغذائية كبركان هائج أو كسيل عارم،.. الجوع الكافر الذي لا يرحم.

ثمة مقايضة تحصل بين العوائل فمن يستبدل كمية من الطحين مقابل الرز أو الزيت..
سرعان ما تحول الأمر إلى السلطة حتى صارت أكثر بطشاً من ذي قبل سياسة الحديد والنار، نعم سياسة الحديد والنار. حتى الناس الذين أكلوا من تلك المخازن صارت وبالاً عليهم، كتبت التقارير على الشباب الذين هجموا على المخازن كما يقال المثل (الذي يأكله العنز يطلعه الدباغ)

استطرد هاشم:
-عندما هدأت العاصفة وحملات القمع الجماعي والاعتقال العشوائي التحقت إلى وحدتي العسكرية الكائنة في بغداد استلمت واجبي آمراً للحضيرة لمشجب الاسلحة وما أن هبط الليل حضر (عودة) آمر دورية حضيرة الأمن الذي ما من أحد يراه إلا وقد يرى في وجهه الشر، طلب استدعاء أحد الحرس الذي بمعيتي وأخبرني بأنه سوف يرجع بعد قليل وما أن لبث قليلاً حتى طلب الحرس الآخر وكررها ثالثاً ورابعاً حتى وصل إلي الدور فاستبدلني بحرس آخر وما أن عبرنا النقطة، باتجاه الظلام أمسك بيدي ووضع القيود
تحدث (عودة) بصوت خفيض:
- لا تخف، مجرد استفسار، شيء روتيني، قادني إلى السلالم المؤدية لحظيرة الأمن والأروقة المظلمة، وصلنا إلى أحد الغرف فتح القيود، أدخلني، كانت

مظلمة تماماً.. تعثرت بأقدام الجنود الراقدين على أرضية الغرفة الباردة جداً تعرفت عليهم من خلال الصوت الخافت، استلقيت على الأرض همس (كاظم) بأذني ميزته من خلال نبرة صوته:

- هاشم سألني المحقق عنك وأخبرته بأني لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه كان معي في نفس الفوج وأنه إنسان عاديّ طيب ومسالم..

زَفَرَ هاشم بقوة:

-كان الوقت يمر ثقيلاً ولم يستدعِني أحد ولم أعرف ماهي الجناية التي ارتكبتها فالجميع تم التحقيق معهم إلا أنا، أصوات الجنود وصراخهم من التعذيب يتعالى.. كانت ليلة ثقيلة ومخيفة، استيقظنا صباحاً على أصوات الحرس، السب والشتائم وكلماتهم البذيئة.. أولاد.. القحبة.. تريدون أن تُسقطوا النظام ... هههههه ... كانوا يضحكون بصوتٍ عالٍ، أوثقوا أيدينا وساروا بنا نحو حافلة نقل ركاب عسكرية وقبل أن نصعد كان ضابطاً برتبة نقيب يقف قرب الباب يتفرس في الوجوه ويتمتم بصوت أجش..

-خونة كلكم خونة..

تحرك أحد الحرس نحونا وضع العصابة على أعيننا، كنا أكثر من أربعة عشر جندياً من جميع الأفواج، سارت الحافلة، أمر الحرس أن نخفض رؤوسنا، وضعت رأسي المثقل بالتعب والسهر والمصير المجهول على الكرسي.. أفكار كثيرة تجول في رأسي، من يخبر أهلي، هل سيطلبون إخوتي ايضاً؟ وما حال أمي ووالدي الكبير لو سمعوا بالخبر؟.. أفكار سوداوية ربما لا أرجع؟ وكيف

لا وأنا بين أيدي أشد الطغاة وأعتاهم في المنطقة العربية، عصابة العين كانت ضيقة وبدأت تؤلمني كثيراً، كان أحدهم قريب مني فرجوته أن يرخي العصابة، زجرني بقوة وشتمني، تحملت كل ذلك وعدت ثانية إلى عالمي، رجعت بذاكرتي إلى الوراء من دون أن أدري، تذكرت إحدى الليالي الشتاء الباردة حين انطلقت صفارات الانذار، التي نفهم منها دخول الطائرات الأمريكية وهي تمرق مخترقة حاجز الصوت..نركض جميعنا نحو حفرة كبيرة خارج البيت بمثابة الخندق نختبئ فيه، كان معنا عمي رجل كبير يريد أن يخفي خوفه وقلقه الشديد كونه لم يخدم في الجيش ولو ليوم واحد، بيده الفانوس الذي يتراقص ضوءه الخافت، كانت أخواتي الصغيرات يلتففن حول أمي خائفات، حيث أمي ترتل الآيات وتلهج بالأدعية، وما أن ينتهي القصف نعود إلى الغرفة المظلمة نشعل الفانوس من جديد.. مسكين هذا الشعب متى يرى النور ومتى يستريح ينطبق علينا المثل (جبر من الفقر للقبر)[24]، صوت الفرامل المفاجئ عادني من جديد إلى أصوات الحرس.. لا ترفع رأسك وإلا هشمت رأسك بأخمص البندقية، خونه..

أنزل بحقنا أقذع الشتائم، ترجلنا من الحافلة قادونا إلى ممرات ضيقة وأمرونا ألّا نرفع رؤوسنا كتب علينا ألا نرفع رؤوسنا هكذا أرادوا...

[24] مثل شعبي يطلق على الفقير

كان زاهر يستمع إليه وقد فغر فاه لأنه لا يعرف تلك التفاصيل. استرسل هاشم في حكايته قائلاً:

كل غرفة في ذلك المكان هي مصدر رعب حتى غرفة الأمانات التي لم نعرفها أول الأمر التي ندخلها تباعاً واحداً تلو الآخر، مسؤول الأمانات أردف قائلاً بصوته الأجش:

-اخلع ملابسك، خلعت ملابسي العسكرية، رمى بوجهي قطعة قماش، (دشداشة) مقطوعة الأكمام حتى إن النزيل الطويل القامة تصل إلى ركبتيه ولكن مثل قامتي كانت تخط بالأرض، استلم ساعتي والمحفظة التي تحوي على بعض الدنانير، طلب مني النظر إلى الأعلى قال:

-هل رأيت؟

- نعم

- سأعلقك إذا لم تعترف.. كان ذلك بقصد الترهيب.. أجبته بتلعثم:

-نعم ... نعم، حين أخرجوني من هذه الغرفة عرفت أنه ليس بمحقق بل هو مجرد مسؤول عن الأمانات فالجميع نناديهم سيدي، اقتادونا إلى قاعة مكتظة بالنزلاء.

كان قبواً تحت الأرض، ليس ساكنيه من الجرذان، يتضورون جوعاً، نصيب كل واحد منهم قطعة (صمون) واحدة والتي لم تُطهَ بشكل جيد، شطرها نصفين كي تكفيه لوجبتي غداء، حرص أن يخفي اللب (العجينة السوداء)

في كوة القبو، حين شعر بالجوع في ذلك الليل الطويل؛ لم يجدها ربما تناولها أحد الجرذان.

لم نخرج من (الشعبة الخامسة) إلا بعد أربعين يوماً... ولكن إلى أين؟ لا نعرف

أردف هاشم قائلاً:

أنّا لنا نسيان تلك الكوابيس التي تعشعش في الذاكرة.. الذاكرة التي لا تقبل المحو و(الفورمات)، حينها لم أتعافَ بعد من حالة الحمى والإسهال الدموي، تم نقلنا في باص مكتوفي الأيدي، معصوبي الأعين إلى مكان مجهول، ربما لا رجعة.. ولأكثر من ساعة، توقف الباص، اقتادونا إلى مكان، أمرونا بالجلوس، رفعوا العصابة عن أعيننا، تطلعنا من حولنا، لا شيء سوى فصيل من العسكر بلباس خاص ذي اللون الزيتوني والأحذية الحمراء وبنادق قصيرة، مكان شبه صحراوي ليس فيه بناء سوى قاعات بعيدة على مد البصر، بدأنا نتمتم بالشهادة ظننا أنه آخر يوم في حياتنا، طلب أحدهم أن يجلب لنا الماء ويفتحوا وثاقنا، ازددنا خوفاً وهلعاً، ربما آخر كأس ماء قبل أن يعدمونا، لكن سرعان ما تم تسليمنا بيد شخص واحد، لا يحمل سلاحاً بل بيده عصى يقودنا وكأننا قطيع أغنام، يبدو من مظهره ولهجته الهمجية لا يصلح إلا أن يكون راعياً عند أحد أمرائه، توجهنا صوب البنايات البعيدة أمامها ساحات كبيرة، كأنها وحدة عسكرية، تلك

البنايات القذرة التي تغص بآلاف من الشباب تم توزيعنا على القاعات الكبيرة، النزلاء في حال مزرٍ، عليهم آثار التعذيب، إصابات وكسور، ومعظمهم الذين نجوا من المقابر الجماعية إبان ثورة الجياع، عرفت من خلال كلامهم، المكان هو أحد معسكرات (الرضوانية) للحرس الخاص للنظام الحاكم، كل يتحدث بطرق التعذيب الذي قاسوه حتى وصولهم إلى هذا المكان، شرع النزلاء يتناوبون في التحدث عن الويلات التي ذائقوها.

قال أحد النزلاء صاحب الساق المبتورة:

- من نجا من تلك المحنة ربما لا ينجو في هذا المعسكر الظالم، الذي بإمرته برتبة نقيب ومرؤوسيه من عقيد فما دون.

- التمايز لم يكن على أساس الرتبة بل على القربة من العائلة الحاكمة، قائلاً: هكذا يريد الطغاة.

ثم أكمل صاحب الساق المبتورة حديثه:

- كنت أعرفه جيداً، وهو يتحدث عن رجل يعرفه (كان أبو أحمد رجلاً بسيطاً يعمل كعامل خدمة في مدرسة، معيلاً لخمسة أطفال بالرغم من مرضه بداء الصرع لكنه يحب العمل، متعففاً لا يحب أن يتصدق عليه أحد، لم ينفك عن نصحه، كثيراً ما كان يفتقر لشروط الناصح والمنصوح، المسلم أخو المسلم طالما يردد هذه الكلمات، ويقول: (هذا طبعي) حتى لو كلفني حياتي. لم يحتمل رؤية العسكر وهم يضربون الشباب، تقدم لنصحهم، وسط سخرية الجنود، أمر أحد الضباط بوضع إطار السيارة في

عنقه، دلقوا عليه البنزين من رأسه حتى أخمص قدميه، أوقدوا النار، راح يبحث في الأرض كأنه طير مذبوح).

سأل زاهر كيف نجبتم وكم لبثتم في ذلك المكان ..

أجاب هاشم:

هكذا كنا.. يلتصق أحدنا بالآخر من شدةِ البردِ ورطوبة الأرض حيث لا بساط يُذكَر، سوى وسادة من زوج أحذية أو ربما واحدة ومن لم يَظفرْ بها، يَجعلُ من يديه وسادة.. نتلوى في ذلك الليل الشتوي الطويل، وإذا ما اهتزت سلسلة الباب الحديدي، نهرعُ مفزوعين، راكضين باتجاه الزاوية المظلمة، متراكمين مثل تلة صغيرة، فمن كان أقرب إلى القمةِ كان ناجياً، بينما يعلو سوط الجلاد، يئنُ الآخر من أسفل الكدسِ البشري المتراكم، بينما هم يولونهم آذاناً صماً.

"خفافيش الظلام"

رأيت وسمعت العجب ربت زاهر على كتفي:

- الحمد لله على سلامتك، سمعت عن ذلك المكان المروّع فقد اعتقل من أبناء القرية العديد إبان الانتفاضة. تتداخل في الحديث معنا ضياء الذي يكبرنا سناً قائلاً:

- أنهم استخدموا مختلف الوسائل في التخويف والترهيب تحدث ضياء وعينيه تدمع، ويقشعر جسده:

كان هو اليوم الثالث بعد دعوتنا للخدمة العسكرية الإلزامية، في مركز تدريب المشاة، وسط صراخ وأوامر ضابط الصف المعلم الأجش،.. انزع التجهيزات.. تراجع عن قوله .. البس التجهيزات، قادنا إلى ساحة الميدان، أمرنا بالجلوس وبصفوف منتظمة، بعد لحظات دخلت إلى الساحة سيارات لاند كروز بيضاء ذوات الزجاج المظلل وبسرعة جنونية، والتي طالما كانت مصدر إثارة خوف المواطن وتردده إذا حاول عبور الخطوط الحمراء، نعم (الخوف أكثر دواماً من الحب)، ترجلوا من العجلات، رجال يلبسون الملابس المرقطة والأحذية الحمراء ببنادقهم، يقتادون أناساً مدنيين، يصرخون.. ماذا قلتم لنا.. ماذا فعلنا.. أوثقوهم إلى الأعمدة بوحشية، أصابنا الخوف والذهول، أغميّ على الكثير من الجنود ومنهم من أصابهم الرجع، وهم

جنود جدد في الثامنة عشر من عمرهم، شعور كل واحد منهم بأنه قد يكون الضحية القادمة، وسط أصوات الرصاص وصراخ الضحايا، فارقوا الحياة، بيدَ أنّ عيونهم مفتوحة بوجوه القتلة السفاحين.

حاول زاهر أن يغير الكلام، محاولاً تخفيف جو الكآبة قائلاً:

-(إذا ضامك الضيم اذكر أيام عرسك)

تبسم ضياء وأردف قائلاً:

لم يكن ذلك في الحسبان.. تسورت سياج الدار حتى لا أزعج أحداً بعد عودتي من قطعات الجبهة الأمامية، ثمانية وستون يوماً قد خلت بعيداً عن أهلي، كان أبي مضطجعاً في حديقة البيت ينفث دخان سيجارته،

- (حجية وصل العريس)

بصوت عالٍ أجابت معربة عن سرورها لرؤيتي:(وليدي) الحمد الله على السلامة، استيقظ الجميع أكلوا وشربوا وضحكوا فرحين بقدومي،

- أردف أبي قائلاً: غداً تذهب إلى أعمامك تدعوهم سيكون الزواج يوم الخميس، ساورتني شكوك بالغة القوه في فهم ما يحدث، كان أبي يأمر وينهي ولا نجرؤ أنا وإخوتي على رفع عيوننا خشية أن تلتقي بعينيه حاسماً وشديداً لا يقبل أي نقاش، نقف في حضرته كالعسكر.

أردفت أمي قائلة:

- (حجي الصباح رباح)

كان نسيم الصباح بارداً وقد اكتسبت البساتين الواقعة القريبة من البيت خضرة منعشه، دعوت جميع أعمامي، كلهم كانوا يعرفون بأمر زواجي، الصغير والكبير إلا أنا، هذا يبارك وأخرى تقبلني، رحت أحدث نفسي:

- أنه زواج تقليدي لا أعرف من تكون وبنت من أعمامي، كل ذلك كان سريعاً جداً، زوجة أبي هي التي ألبستنا الخواتم، تعالت أصوات الزغاريد، وزعت الحلوى والعصائر تساقطت عليهم مطرٌ من (الملبس) وتهافت الأطفال لالتقاطه ولو حشروا أنفسهم بين أقدام الحاضرين، حفلة (الحنة) التي أقيمت في وسط البستان المقابل لبيتنا موسيقى وغناء وآخرون يحتسون العرق.. وامتعاض أبي بسبب ما يحصل، على كل حال انتهت على خير، سرعان ما انتهت الإجازة التي هي سبعة أيام يوم في الطريق ويوم العودة، ترددت بالذهاب لم يكن هيناً عليّ تركهم، ولكن..

رحت أمضي جيئة وذهاباً، ودّعت أهلي بينما كانت الدموع تنهمر من عينيها وتسيل على خديها، رجعت إلى الجهة، ثمة نبع عذب، على نحو لا سبيل لوصفه من ينابيع الذكرى اجتاحتني.

غطت صفوف السحب شطر السماء، وحجب خطها العلوي، في هدوء، جانباً من الشمس، وصل ضياء إلى مكانه بشق الأنفس، استقبله رفاقي الجنود، حدثهم ما حصل له في إجازته من مفاجآت وقصة زواجه السريعة.

استطرد ضياء قائلاً بينما زاهر وهاشم يستمعون إليه:

-كان ينبغي أن يبزغ القمر، لكن السماء اتشحت بالسحب واحتجبت النجوم، دلفت إلى فراشي، استيقظت على أصوات أزيز الطائرات والهجمات الأشد عتواً، لقد حل الموت على نحو مفاجئ للغاية وارتسم عدم التصديق على وجوه الجنود الإحياء، ورجال آخرون يموتون دون أن يخلفوا جثثاً، وثمة شخص آخر في الديار يتألم، زفر بقوة متمتماً: أمي، وهل من أحد غيرها كان آخر ما خبرني به ذلك الجندي الذي التحق بنا مؤخراً، قبل أن تشتعل الخطوط الأمامية بنيران المدفعية وقبل أن يشتد أزيز الطائرات كسماء تنهمر مطراً غزيراً قال لي:

- (أترك عندك هذه الأمانة إن رجعت فأنا أولى بها وإن لم أرجع فهي لك)..

لم أهتمم لكلامه كثيراً.. كل منا منشغل بحاله، حالما انكشف الصبح، لم يكنُ أمامي إلا أن أتوجه صوب هذه الحاوية الصغيرة، ملأت صرر كصرر العجائز حين تقصد مزارات أولياء الله، ثمة أشياء قد اشتراها في طريقه إلى الجبهة، دميه، ثوب لطفلة وأقراط صغيرة؛ بيدَ أن الذي أحزنني لم أسأله عن سكناه!!

ركبت القطار، مكتظاً بالمسافرين، نمت ملء جفني، واقفاً على قدمي، أغمضت عيني ولم أفتحها إلا بعد أن اجتزت المدينة وقد خيمت خفافيش الظلام...

تمتم زاهر كما هو دأبه أن يغير طبيعة الكلام وهو ينزل بأقذع الشتائم على الحاكم وهو يتلفت من حوله اقصد (عبود) خوفاً من ذكر اسمه يجيبه ضياء قائلاً:

(الحائط له آذان)

"صَمْت حزين"

استأذن هاشم حين دَخَلتْ عليهم إلى المرسم بجسدٍ ممشوق القوام وبحركات إيقاعية منتظمة وبصوت خفيض، قاطعاً حديثه وهو يعطي ملاحظاته حول اللوحة قبالة صديقه حمدان وهو يملي بياض لوحتهِ بألوانٍ زاهية، متفائلاً، وَعَدَها سيفاتح أهلهُ بخطبتها، كادت أن تطير من الفرح، اقتنصت قبلة سريعة، همّت به لتعانقه، بيدَ أن دخول زميلاتها حالت دون ذلك. كان طويل القامة، رقيق العود، فناناً، موهوباً، وسيماً، ذا حس مرهف، نظراتهِ الخجولة، بادرَ بمفاتحة أبيه أردفَ الأب قائلاً بصوت أجش:

-(بابا عندك بنات عمك)، تريد أن تجعلني أضحوكة بين أعمامك.. بنت من الكلية.. على غير تقاليدنا وعاداتنا.. لست أدري من تكون، امتعض الأب، احمرَ وجههُ، انثال العرقُ على جبينهِ، تشظى صرخات (حمدان) دون دمع، رفض الأب هذا الأمر جملةً وتفصيلاً.

خرج حمدان باتجاه الشاطئ حيث كان معتاداً، ترتعد فرائصه، يستشيط حنقاً، تنفس ملء رئتيه بقوة وبألم مكبوت، يجترُ تفاصيل الحكاية، كل شيء تغير عما كان، ترك الدراسة، ساءت حالته الصحية والنفسية، ما عادت تلك البشاشة والتفاؤل مرسوماً على محياه، ذهول، شرود ذهني، تسكع في الشوارع، بالغ الأب في قسوته، احتجزه في البيت ذريعة بأن تصرفاته

مشينة تسيء إلى سمعته ومكانته الاجتماعية، حزن هاشم كثيراً على حاله حين سمع أخباره، ازدادت حالته سوءاً، عُرِض على كثير من الأطباء، إلا أن صدمتهُ كانت أشد وقعاً عليه من أي عقاقير أو مسكنات، تعاطف الأخُ الأكبر الميسور الحال مع حالتهِ المأساوية، أصحبه إلى بيتهِ وفرَ لهُ جميع وسائل الراحة، لكن سوء الحظ كان ملازماً له، زوجة الأخ المتسلطة، أكثر قسوة من أبيه، وصلَ بها الحال إلى ضربه مستغلة ضعف جسده الهزيل الآخذ بالذبول، هربَ من البيت ولم يكن له مكاناً ثابتاً تارة في الشارع والمساجد، وتارة أخرى على الشاطئ الذي طالما كان يأوي إليه، كان هادئاً تماماً معبراً بكل أنواع الصمت، صمت أليم، صمت متسائلاً، صمت مشوش غير مفهوم ، صمت ساخر، صمت حزين، صمت مكسور، صمت مأساوي، يحبه الناس في ماضيه وحاضره، يدخل إلى الحلاق كالآخرين، لا يهتم إلا بمظهره العلوي، يرتبُ شعرهُ ويحلقُ ذقنه، إلا أنّ نصفه الآخر، ثوب قصير بأزرار مقطعة!!... لعلّه يرى صورة حبيبته في وجهه التي كانت تطيل النظر إليه، لا يبالي الحر والبرد، راح يطيل التأمل صامتاً على مياه الشاطئ، لم يبقَ لديه شيئاً من عدة الرسم سوى قلم وبعض وريقات قد دسها في جيبه يملي بياضها، أنف، فم، شعر مسترسل وخطوط سوداوية حزين

" هاشم "

جالس متخشب بلا حراك على جذع النخلة الملتصق بسياج الدار .... اصطكت أسنانه وازرقت عيناه، كان الجو بارداً جداً.. حين دنوت منه سمعته يدندن بكلمات حزينة يتنهد وقد أنهكه الألم.. لعلّه يأتي فيجلب لنا وقوداً أو حزمة حطب.. لم هذا التأخير؟ المحطة ليست بعيدة عن هذا المكان .. صمت كئيب .. لم ينبس ببنت شفة .. كلمة تخرج من فمه ملؤها الحزن والأسى.. كم نذر ونذر وسادة وعرافين طالما طرقنا أبوابهم، عاد إلى صمته.. حاولت الاقتراب منه أكثر، لم يبدو من منظره أنه مجنون.. شيء ما دفعني الفضول في الدخول إلى مملكة أحزانه، ربما لديه من الأسرار.. ألقيت السلام.. رفع رأسه رمقني بنظرة من أعلى نظاراته الطبية بعينيه الغائرتين وحاجبيه الكثين التي قد تداخلها الشيب، يبدو أكثر وقاراً وهيبة.. فبادر هاشم:

-لعلني أنفس عن كربتك،

زفرة بقوة، تنفس الصعداء، أخرج يديه من معطفه الصوفي الأزرق، أشعل سيجارته، نفث الدخان، جال نظره صوب الدخان المتصاعد على شكل حلقات استغرق معها بصمت رهيب حتى خشيت أن أقطع عليه صمته الذي يحمل بطياته ألماً وحزناً شديداً، لم يلبث إلا دقائق حتى أجهش

بالبكاء.. أحزنني منظر الرجل فليس بالشيء الهين أن يبكي الرجل ، وما إن توقف عن البكاء وسكنت عبراته، أدخلني إلى داره، تقدمني بخطوة، أحسست أنه بحاجة إلى من يكسر عليه حجاب الصمت، كان الدار خالياً من أي أحد، فثمة أشجار في فناء الدار قد اصفرت أوراقها وذبلت أغصانها ويبدو أنها قد أهملت وقفص للطيور خالٍ إلا من بقايا ريش متناثر ومخلفات الذروق، توجهنا صوب الغرفة المقابلة لفناء الدار ذات البوابة الخشبية التي لم تصبغ بعناية وجدران قد أكلتها الرطوبة وأشياء مبعثرة هنا وهناك ويبدو أن الدار خالية من لمسات لامرأة كون الدار عالم ميت بدون هذا المخلوق الأنيس، ثمة صور عائلية لامرأة غضة، وجميلة وقد زينت جبينها بأكاليل ... واستسلمت لوضع مسحوق الزينة وأحمر الشفاه وعلى رأسها غطاء مخملي وكأنها من ملكات القرون الوسطى من النبلاء، وإلى جانبها رجل أسمر حاد الوجه معقود الحاجبين يعلو سواد عينيه الواسعتين وشفتين كبيرتين يعلوها شارب كث، كأنه رجل قوقازي بمعطف وقبعة تضفي عليه هيبة وشخصية قوية توسطهم طفل يقترب الخامسة من عمره فهو قريب الشبه لأبيه، تساؤلات كثيرة تجول في رأس هاشم:

-يبدو أن هذه الصور لم تكن في هذا البلد الفقير وكأن الزمان قد دار عليهم وثمة أشياء أخرى مبعثرة من كتب مدرسية و أوراق وحذاء رياضي أصفر في أقصى الزاوية.. أذنَ إليّ بالجلوس.

-عذراً.. البيت متواضع.. وليس لديّ ممن يقوم لك بالضيافة فإن أهل هذا البيت قد سافروا بعيداً.. ثم سكت، فهمّ بالقيام ليقدم لي شيء فأمسكت به وأقسمت عليه أن لا يكلف نفسه عاد ليجلس ثانية،

-قلت لي إنهم سافروا..

-نعم سافروا وتركوني وحيداً..

-أين كانت وجهتهم؟ ولِمَ لمْ تسافر معهم؟

-آه.. آه ليتني سافرت معهم، عاد الصمت من جديد ..

اصفرّ وجهه كليمونة، عندئذ خلع نظارته، دفن وجهه بين كفيه المرتعشتين رفع رأسه وشرع يتفرس بعينيه المهووستين على الصورة المعلقة على الجدار مستغرقاً.. وضعت يدي على كتفه الأيمن معبراً عن مواساتي له وأهون عليه وحدته.. تمتم..

- ليتني سافرت معهم وخلصت من هذه الدنيا. عرفت من نبرة كلامه أنّ سفرهم هذا بعيداً لا عودة لهم. عاد إلى حديثه الشجي وكلماته التي تخرج من فمه مغمورة بالجمرات والآهات..

- لن أنسى ذلك اليوم، ذات يوم ليس ببعيد، ما إن انتهينا من صلاة الفجر همّ ابني غسان بارتداء معطفي المطري وقبعتي القوقازية السوداء.. قد تبدو أكبر من حجم رأسه قليلاً، اشتريتها في زمن الخير ومن بلد الخير والأمان حيث كانت الناس تتوقد غيرة وحمية ورجولة حيث كان الرجال تموت

واقفة بكبريائها وشموخها لا كما هو عليه الآن الرجال تبول واقفة ظناً بأنهم هكذا تكون الرجال بإبراز ذكوريتهم،

لبس غسان حذائه الأصفر واستعد للخروج وكأنه خارج للقتال يبدو بطلاً أسطورياً يتحدى المصاعب ويفتح البلدان، أرى فيه صلادة الآباء والأجداد الذين هم في تعب والناس منهم في راحة، الذين يجوعون من أجل ضعفاء الناس والأيتام. هكذا كان غسان.. أوصلته إلى باب الدار فأخذ صفيحة النفط، ساورني القلق ليس كعادتي وكأن شيء ما سيحدث.. دنوت منه، قبلته، كان الضباب كثيفاً ورذاذ الندى يتساقط على وجنتيه المليئة بأفعوان الشباب والحيوية.. فأجابني:

-أبي سأعود لكم سريعاً..

وما إن عدت إلى الدار جلست مع أم غسان وتناولنا أطراف الحديث بادرت:

-أما آن الأوان أن نفرح بغسان، العمر يمضي وقد لا نرى أطفاله.. إن ابنة عمه قد كبرت وصارت عروساً، وقد ادخرت لها قلادتي التي قد أهديتها لي في عيد ميلاد زواجنا للعام الثالث، وها أنا الآن لم يبقَ لي شيئاً سوى هذه القلادة العزيزة عليّ، بسبب ظروفنا المعيشية والظروف التي حلّت بالبلد بسبب الحصار.. لكن.. لا أعزها على زوجة ولدي ..لنجعلها مفاجئة له،

وبعد وقت ليس ببعيد وإذا بصوت قصف الطائرات الأمريكية ودويّ لصفارات الإنذار، اهتز لها أركان الدار فهممت بالخروج مسرعاً حافياً..

أمسكت بي صارخة.. (غسان راح من أيدينا).. إني بددت الخطوات.. لم تتمالك نفسها سقطت على عتبة الدار.. بلا وعي انطلقت صوب رأس الشارع المؤدي إلى المحطة.. أضرب الأخماس بالأسداس.. هواجس مبهمة، غثيان ودوار، الضباب أقل كثافة مما كان عليه فجر ذلك اليوم.. أناس تجري باتجاه المحطة.. آخرون مذعورون، أصوات تتقاطع لا أحد يعرف ماذا يحدث، يوم القيامة، كارثة، مصيبة طوابير من النساء والرجال المكتظة على المحطة صاروا أشلاءً..

لم أقف عند أحد، أنقل أقدامي الحافيتين المتثاقلتين، أجر أنفاسي بقوة كغريق، يكاد قلبي يخرج من أضلاعي، أصابني ذهول عارم، أشلاء وبقايا أجساد، أيدي، أرجل، عباءة امرأة، جال نظري بين الأشلاء أبحث عن وحيدي، شبحت عيناي يميناً وشمالاً، عبثاً أبحث عن بقاياه.. انتابني بأس شديد سقطت على الأرض أبكي بكاء الثكلى ما إن وقع نظري على حذاء من بين الأشلاء والملابس المتهرئة، قلبته بين يدي لم أكد أميزه في أول الأمر لاختلاط الوحل بالدم.. صعب على الناس حالي وبمساعدتهم تمالكت نفسي عدت إلى البيت لم أحظَ بشيء سوى حذاء الرياضي الأصفر الملطخ بالدماء، بخطى ثقيلة حافياً عبر الشارع الإسفلتي الرطب بفعل الندى المتساقط والممتزجة بدماء الأبرياء وعند اقترابي من الدار سمعت أصوات عويل لنساء قد اكتظت محتشدة عند عتبة الدار كان حديث النسوة:

رحم الله أم غسان.. المسكينة لم تتحمل الصدمة لحقت وحيدها، انكفأتُ على قدميها..

-الله يرحمهم، البقاء لله، اللّٰهُمَّ يلهمك الصبر والسلوان.

بعد ذلك اللقاء صار لي صديق أتردد عليه بين فترة وأخرى... حتى قرر أن يصفي ما تبقى من عفش وأثاث ويبيع البيت ويهاجر..

"صديق هاشم"

من خلال ثقب الباب الذي يطل على شارع القرية، ينظر سيف إلى الذاهبين والعائدين من أعمالهم، الذي شاء القدر أن يقذف به في هذا المكان، لم يعرف أحداً في هذه القرية سوى هاشم الذي تعرف عليه بالجامعة يستمع إلى أصوات المتسكعين والعاطلين عن العمل، الملتصقين على الجدران كأنهم ذباب، يصعد أحياناً إلى سطح الدار يتطلع على تلك البيوت القديمة، المتماهية والمتراصة بعضها مع بعض، ثمة نساء تنشر الغسيل يتطلعن إليه، وشاب مراهق يصفر ويلوح بعصى طويلة تنهي بخرقة على طيوره في السماء مصدراً صوتاً (كش- عع) يشبه صوت طير جارح لغرض استمرارها بالطيران أطول مدة.

بعد أن نزح من المدينة الكبيرة حيث كان هاشم سبباً في إيجاد هذا البيت الصغير، يضع فيه أثاثه التي ورثها من أهله وبقية الأغراض التي تبرعت له بها أخته الكبيرة والمعيلة لهم، بعد أن تزوجت وهاجرت إلى خارج البلاد، على أثرها تفرقت العائلة، والبيت الذي بحوزتهم استرد إلى أهله الذين عادوا من التهجير القسري. بينما كانت زوجته التي تزوجها بالسر والتي مضى على زواجهما أكثر من عشر سنوات، بسب رفض أهلها وتعصبهم لقوميتهم الكردية وتهديدهم لها بالقتل إن حاولت الاتصال به،"العلاقات السرية بين

المحبين تدوم أطول من العلاقة العلنية بين الأزواج" واصلت زيارتها له كل شهر، تقضي معه نهاراً أو نصف نهار، كل ذلك لا يخفف من حزنه ومخاوفه الشديدة من صرف ما تبقى له من مال الذي ادخره للهجرة بحثاً عن عمل.
كانت هي الليلة الأخيرة قبل سفره، لما بعثت إليه أخته للعمل في (الأردن) شركة زوجها التي طالما كان يحلم بها منتظراً فرصة عمل خارج البلاد بعد أن تخرّج من الجامعة، تحملَ الكثير وعانى الوحدة والغربة في تلك القرية بالرغم من قرب صديقه هاشم له.
-طوال الليل أستذكر الأيام والساعات الجميلة التي عشناها سوياً في أيام الجامعة، شارع الرشيد، المتنبي، مقهى حسن عجمي ومقهى أم كلثوم، ربما كان لهم حسن تلقي فيما يدور في الساحة من ثقافات فلا يفوتهم ما يعرض في قاعات الفن التشكيلي، الرواق، وقاعة الفن الحديث وقاعات السينما والمسرح يعودون إلى البيت ملؤهم النشوة والسعادة، أرتقي السلالم باتجاه الغرفة الصغيرة في الطابق العلوي...

سماء صافية إلا من بعض الغيوم البيضاء المتناثرة هنا وهناك، خيوط الشمس الذهبية تتخلل الأشجار، بتدرج لوني من الصفرة الشديدة إلى الأخضر المصفر ثم الأخضر الغامق، تترك ظلالها على ضفاف البحيرة فتعكس خضرتها مع زرقة السماء وتموج المياه، لوحة ربانية رائعة، ثمة بيتان متجاوران سقوفهما بشكل محدب وكأنه شيد على الطريقة اليابانية،

يفصلهما جسر مشاة متخذاً شكلاً هندسياً مقوساً، بإمكان زورق صغير أن يمر من تحته، بعيداً عن ضوضاء المدينة، تنفس الصعداء، تلبّسه توق كبير، لهفة نحو السعادة لم يشعر بها من قبل، كاد أن يشم عطر هذا المكان وهواءه العذب وحفيف أوراق الشجر، أحلام جديدة تحركت، بيدَ أن نهاية السيمفونية أيقظته.

- ذكريات كثيرة، الموسيقى العالمية، حيث كان سَيف مولعاً باقتنائها، بيتهوفن، فيفالدي، موزارت..

- (الفلوت السحري)[25] كان لها وقع خاص في قلبه.

كانوا حالمين ويفترضون أشياء، ويؤسسون نظريات في خيالهم الخصب ليس لها وجود. يحاولون أن يجدوا لهم لغة خاصة،

مضى الوقت، وساعات الرحيل باتت وشيكة.

[25] أوبرا الناي السحري... رائعة موزارت الشهيرة وآخر أعماله مع أوركسترا حية مكونة من 90 عازف عرضت لأول مرة في مدينة فيينا قبل أكثر من 200 عام ...

Good

فجر **20** آذار**2003** كان الموعد مع الضربة الأولى وإعلان الحرب على العراق حيث تسابقت أسرب الطائرات الأمريكية والبريطانية وبعض الطائرات العربية ضمن التحالف الدولي إفراغ حمولتها أطنان من القنابل والصواريخ الأميركية على بغداد والمدن العراقية ويستمر تقدم القوات الأميركية والبريطانية، وصدام يتعهد بدحرهم على أسوار بغداد ووزير الإعلام محمد سعيد الصحاف ينفي جميع تأكيدات القوات الغازية باقتراب المعركة من العاصمة مؤكداً أنها خطة لاستدراج هذه القوات لفخ يقضي عليها.

وبدا المشهد الجديد من السلب والنهب لدوائر الدولة ومؤسساتها على مرأى ومسمع من الجنود الأميركيين وكاميرات وأقلام الصحفيين. القوات الأميركية لم تتمكن من حماية المتحف العراقي من السرقة لكنها وبحق تمكنت من حماية بناية وزارة النفط العراقية والتي لم يشملها السلب.

لجأ الكثير من الأسر العراقية في مراكز المدن إلى الأرياف والقرى النائية بعيدة عن المنشآت والمراكز العسكرية تحاشياً القصف ولقريتنا كان لها نصيب ممن رجع إليها الكثير الذين تركوا القرية لسنين طويلة ومنهم من كان يشغل منصباً (في حزب البعث) مختبأ بين أقربائه كونهم معتدلين ولم

يأذوا أحداً لحمايته من الأحزاب الحاكمة الجديدة وآخرون طالت لحاهم ووشمت جباههم وصاروا رواداً للمساجد يتنافسون على المنابر قارئين ومؤذنين ودعاة لأحزاب إسلامية... أمور كثيرة طرأت وأناس قد تقوقعت في منازلها وآخرون قد تغيبوا من القرية..

الغزو الأمريكي للعراق أو معركة الحواسم أو حرب الخليج الثالثة (حرب العراق أو احتلال العراق أو حرب تحرير العراق أو عملية حرية العراق) هذه بعض من أسماء كثيرة استعملت لوصف العمليات العسكرية التي وقعت في العراق وانتهت الحرب بسيطرة الولايات المتحدة على بغداد.

سقوط بغداد واعتقال صدام هما الحدثان الأبرز في عام حافل بالمتغيرات التي لم يشهدها العراق من قبل مما جعل **2003** عاماً تاريخياً ليس بالنسبة لحسابات العراق فحسب، بل حتى في حسابات التاريخ العالمي.

منح مجلس الأمن الدولي صفة الشرعية للاحتلال حيث اعترف بالقوات الأميركية البريطانية كقوة احتلال في العراق، ويبدو أن القرار أطلق شرارة مقاومة الاحتلال.

وانطلقت المقاومة في مدينة الفلوجة وامتدت بعدها إلى ما أطلقت عليه وكالات الأنباء المثلث السني ثم وصلت إلى معظم أراضي العراق.

ويمضي المشهد العراقي بين المثلث العراقي الذي يستند على أطراف ثلاثة الشيعة والسنة العرب والأكراد السنة يتكون منها على الغالب المجتمع العراقي بمرجعياته وأحزابه وتجمعاته مع زوايا أخرى كالتركمان والمسيحيين وغيرهم.

انتهى المشهد في 9 نيسان بتمثال صدام في ساحة الفردوس يشنق بالعلمين الأميركي والعراقي ويهوى إلى قاع بغداد مع بقاء رجليه غائرتين في الوحل العراقي وسقطت بغداد ودخلت الدبابات الأميركية عاصمة الرشيد مبشرة بما يسمى الديمقراطية الجديدة.

وقبل نهاية 2003 وتحديداً في 13 / كانون الأول، تم القبض على صدام حسين. وظهر لأول مرة في المحكمة عام 2004، ووجهت له تهم تتعلق بغزو الكويت والهجوم على قرية الأكراد بالغاز السام، ولكنه رفض الاعتراف بالمحكمة باعتبارها محكمة "الاحتلال".
وأدانته المحكمة في أول قضية جنائية ضده، وكانت خاصة بمجزرة قرية "الدجيل"، وحكم عليه بالإعدام، في 23 / تموز 2006، وتم تنفيذ الحكم في 30 ديسمبر/ كانون الأول من العام نفسه.
الأسئلة التي أثارت حيرة الجميع خاصة وأن قرية صغيرة في الجنوب العراقي تسمى "أم القصر" قاومت الاحتلال الأمريكي بجسارة مدة أسبوعين بينما سقطت بغداد في ساعات.
أبناء القرية بين فَرِح بزوال النظام ومنهم من تعكر وحزن ربما لأنهم من المستفيدين وقد حط الأمريكان في قصر (صدام) المشيد على جبل صدام وبعض القوات اتخذوا من بناية المدرسة مقراً لها تستقبلهم الأطفال

بكلمات (good) مشيرين إليهم بقبضة اليد ورفع الإبهام إلى الأعلى وتارة يرفعون السبابة والوسطى بعلامة النصر، بالمقابل كان الجنود الأمريكان ينثرون قطع الحلوى، وأكياس مؤونة، عمل معهم بعض العاطلين عن العمل مقابل بعض الدولارات بذريعة الفقر ومنهم من حرّمَ العمل معهم ومنهم من أجاز ذلك.

وقد خلفوا الويلات والحزن على بعض أهالي القرية، حيث سقط بعض العاملين من سياراتهم التي تسير بسرعة تحمل النفايات فأصيب البعض ومات بعض آخر، يلجأ إليها بعض الفقراء للبحث ونبش تلك النفايات علّهم يحصلون ما يرمونه من أجهزة ومن علب لأغذية الجيش ورمي المجلات الإباحية، ومن ضحاياهم (حيدر):

اعتاد حيدر على ذلك، يشمه ذلك الكلب قبل دخوله الى عمله، بفضوله الطفولي جلس على مكتب الرقيب، تطلع على شاشة الكومبيوتر، أمسك الفأرة، ثار حفيظته، استدرجوه الى غرفهم المظلمة، كوفئ بحقنه نهاية الخدمة، راح يذرع الشارع جيئة وذهاباً بلحية كثة وثياب رثة.

"حكاية في زنزانة"

ضمَّ هاشم ذراعيه حول ركبتيه وراح رأسه يتمايل بتأثير النعاس، حدث نفسه على نحو غامض، صار يتمتم: عندما يصل الزمن إلى قمته، دونما توقف سيشرع في الهبوط.

تهرب من إلحاحهم راجياً أن يتجملوا بالصبر

(بفضل هذه القدرة الربانية على سرد الحكاية وبوسعه أن يشد انتباههم وأن يتلبس لكل حالة يهلل وجهه في مواقف الفرح وفي الغضب يقطب حاجبه، ويتهجد صوته وتكاد دموعه تنهمر في حالات الحزن)

هكذا كان هاشم يحكي لهم بما يشبه سجع الكهان وهم فاغرو أفواههم: في يقظة كنت أم حلم...

هنالك... بعيداً... عن الأرضيين ثمة مملكةٌ... يقال لها مملكة المجانين لما ضرب الإعصار سواحل عقلي وقلبي عزمت... الرحيل.

(ألفيت سيدها عند الباب) عذراً.. سيدي اِيذن لي واقبلني صديقاً أو حبيب نظر إليّ، قرأ الجنون بعيني.. وبصمت نظرت من حولي، رأيت أناساً وأشياءً لم أرَها في عمري عرشاً محمولاً على رأس الماء، أشياء وأشياء، عشاق حد الجنون، سُراق قلوب، شعراء، سكارى وما هم سكارى، أرواح معلقة أعالي السدرة، راعٍ أعلى الربوة بناي حزين يعزف لحناً.. قداساً سحرياً، ومن

الحقول يجتمع القطيع، خراف ووعول، أسود وحمير، أفاعٍ ونسور الكل في سرور.. ثمة ناقة صفراء تسر الناظرين ذات ضرع كبير الكل منها يشربون كبيرهم والصغير.. حين حظر سيد المملكة.. ساد الصمت وكأن على رؤوسهم الطير. توقف هاشم قليلاً ثم استطرد حاكياً..

كان هو المساء بعد السير لثلاث ساعات باتجاه الصحراء، حيث الكثبان الرملية بصحبة الحاج محمد، العارف بطرق الصحراء، ثمة تساؤلات كثيرة تجول في رأسي، لِم أختار هذا المكان النائي؟ ماذا يأكل ويشرب؟ وسط تلك الواحة، ربما كان راهباً اعتزل الناس أو معلماً بوذياً يمارس طقوساً خاصة أو ربما كان مطارداً من قبل السلطات، ازداد الفضول كلما اقتربنا من ذلك المكان لم يكن راهباً ولا معلماً بوذياً بل شاباً ذا كاريزما مهيب الحضور.

عاد هاشم إلى سجعه من جديد قائلاً: لم يكن متصوفاً بل عاشقاً حد التصوف متمرداً... كان يدندن بكلماته.. اليوم فحسب سأجحد ربكم، ربٌّ لن تروه، وألتحق بربي أنا، أراه ويراني، إن شئت حدثته لأنه هو أنا، ربٌّ أصلي إليه حين أكون سكراناً، حد الثمالة ففي صحوي لا يعرفني، كذلك أنا، ربي لا يفرق بين الأديان ولا يعيشوا في الألوان، يعرف معنى الإنسان، يمنحني حق العزف على العود، وأغني أغنيتي (اعزاز عدنه)[26] لجميع الكائنات وبكل اللغات... ثم صمت طويلاً.

[26] أغنية عراقية للمطرب ياس خضر

ومن ثمة...

صَمَتَ الجالسون الذين يحيطون بالرجل، وكأن على رؤوسهم الطير يبادلون بعضهم بعضاً نظرات ذهول، كنت ألاحظه بطرف خفي لكن الذي أثار استغرابي كيف وصل صديقي (سيف) إلى هذا المكان النائي؟ ألم يسافر للخارج للعمل؟ ولماذا لم يتصل بي طيلة هذه الفترة؟ لماذا أخفى نفسه كل هذا الوقت؟ تكتم على هذا الأمر لربما لسريته أو خوفهم من النظام، (وأبو غسان) ألم يخبرني أنه سوف يصفي جميع أغراضه بعدما فقد ابنه في الانفجار وزوجته التي ماتت على عتبه الباب بالسكتة القلبية على إثر ولدها؟ كيف وصل حمدان المجنون هل صار إنساناً سوياً؟ وهل شفي تماماً؟... وهؤلاء ممن تغيبت وجوههم عن القرية كذلك بعض الهاربين عن الخدمة العسكرية هل وجدوا ملاذاً آمنا؟ أو ربما استحوذ عليهم بسحره على عقولهم وقلوبهم وظنهم بأنه هو مخلصهم الأوحد، وربما دفعهم الفضول كما حصل معي، ولكن في يوم وليلة صارت تلك المملكة هشيماً تذروه الرياح في معركة طاحنة، مات من مات ومن فقد ومن بقي حياً يلعق جراحه في السجون ثم أنشد هاشم:

خفافيشٌ
تنقضّ على .. ليلها
لعِقتْ
ما تبقى من دمِ العصافيرْ ،
و فضلات الصقور ..
لمّـــا
خاصمت الشمس
غَسَقِها
حين أرعبها المشهدْ

أقسمتْ
لن تعودْ

اصطكتْ
أسنانْ الفجرْ
من .. رقصِ
الصبح
طيراً يُذُبـحْ ،
على المنسك

قرباناً
للرب

ثمة
قدّاس
تحت الأنقاض
حجرٌ
في فمِ طفلٍ
وامرأة
مجداً
مجداً.. للرب

الدمُ العبيط
يشربه
الرمل
أغصان تتآمر
على
العصافير

والسماءُ قيامة
كبرى...
تأتلف مع الصقور
والأرض هشيم
لا تأوي المغفلين

تسمر وجهه باتجاه النافذة المطلة على ساحة السجن كان هو المساء.. جال نظره نحو السماء الصافية.. قمراً منيراً أضاء الوجود... ثمة أفكار تلف برأسه.. يسافر خارج حدود جسده البالي.. أطرق قائلاً: ما أحلاها من أيام. يجتمعون حولي أطفالي وأنا أحكي لهم قصصاً عن الحيوانات في الغابة البعيدة..(كـــــان يا مـــا كـــــان في قديم الزمان)، وهم يصغون إليّ فاغرين أفواههم بشوق وبنهم شديد.. وحالما أتوقف قليلاً ينكبون عليّ قائلين.. لا.. لا يا أبي أكمل.. أكمل و((بعديـــــــــن)) ..
استأنس بهم ويستأنسون بـــــــــي.. وما إن أنهـــــــــــــي حكايتي ب(تعيشـــــــــــــون وتسلمـــــــــون))
فيجيبون بصوت واحـــــــــد و((أنت الســـــــــالم)) مـــا أحلى تلك الأيام وما أحلاها.. هاهي أصواتهم.. صورهم.. أنفاسهم.. لم تفارقني فهي في قلبي وروحي .. ثمة نسمة باردة صفعت وجهه .. عادت به ..

صحا من هذا الحلم الجميل .. اصطدم بواقع قدره.. استجمع قواه .. ينسج خيوط أمل بيتاً للعنكبوت وما أوهنها من بيوت

ثمـــــــة رياح قوية تحرك إعصاراً ميتاً في عقل هاشم.. يلملم ركاماً لغيوم سوداء تلـــــــوح في أفق حدقات عيونـه التي تنذر بهطول أمطـــــار غزيرة من دمع ودم على سفوح وجنتيه التي لفحتها الشمس سعياً وراء رغيف العيش، أحدث الزمن مخالبـــــه، تضاريس وَعِرة بانتْ معالمها حول مقلتيه من ويلاتْ وأحزانْ الزمنْ وتداعيات يتم الطفولة ونحيب الأرامل التي خلفتها لعنة الحروب والطائفية..

سوء الطالع كان له رفيقاً ملازماً وحالته تسير من سيئ إلى أسوأ. من سجون الأمس إلى سجون زمن الديمقراطية الجديدة، تسمرت عينيه باتجاه الباب يتفحص وجوه الداخلين إلى ساحة السجن.. كان هو يوم مواجهة النساء يتمتم.. لعلها تأتي لأفرغ همومي.. السجن مقبرة الأحياء كما يقولون.. أغلب النساء الداخلات كان الحزن والسواد يعلو وجوههنَّ فمن الصعب التمييز عن بعد كذلك السجناء لتشابه الملابس الرسمية.. الساحة قد امتلأت بالنساء، تكاد لا تميز السجناء من بين العباءات السود التي التفت على أزواجهن يتهامسون ويسرقون الكلمات عن أعين الحرس المنتشرين التي تتلصص هنا وهناك..

الساحة كأنها خشبة مسرح فجميع الحاضرين قد حفظوا السيناريو على أكمل وجه الكل يمثل وحتى السجان الذي يمثل دور الجمهور فعليه أن يؤدي دور السجان لأنه يعرف تماماً مظلومية الكثير من الموجودين...

الساحة ذات اللونين كرقعة الشطرنج ننتشر، نتهاوى، بيادق وجنود، كلما تقدم الزمن وغزانا الشيب، تدوسنا سنابك خيول الحرس الملكي، لازلنا حبيسي القلعة المتساقط أسنانها، تظاهر الملك بهدوئه تماماً مثل كل مرة، مغتراً بوزيره صاحب العرف كديك رومي أو فارسي ينفش ما تبقى من ريش جناحيه المتآكل، بداء الكلب.. ثمة غبطة بدأت ترتسم على وجه هاشم بعد مضي أكثر من ساعة بدأ يلوح بيديه باتجاه الباب الحديدي الضيق. حيث يمر منه المواجهين ثمة مجموعة من النسوة الداخلات المتشحات بالسواد من بينهم امرأة تبدو بدينة قد لفت عباءتها بتحفظ وكأنها تخبئ شيئاً، تدير بعينيها الغائرتين من تحت حاجبيها النحيفتين وقد رسم الحزن هالة سوداء حول مقلتيها.. أومأت برأسها علامة تدل بها على معرفة مكان جلوسه.. وقف على طوله لكي تميزه من بين الموجودين.. استقبلها بحرارة.. وبرغم الدور الذي يقومون به كممثلين بارعين متظاهرين بأن الوضع طبيعي وأن الأمور في الخارج تسير على ما يرام وكأنه لو كان موجوداً معهم.. وأردفت قائلة: الحمد لله نأكل ونشرب والأطفال يذهبون إلى مدارسهم، لا تشغل بالك (الذي ليس له أب له رب)) الوقت يمضي سريعاً صوت السجان

يتعالى فوق أصوات الجمع الكبير يأمر بانتهاء المواجهة... هكذا انتهت المسرحية كما ابتدأت...

"الفرج بعد الشدة"

عاد هاشم لديدنه القديم يحكي قصصه ولكن هذه المرة روّاده لم يكونوا زملاءه في الزنزانة بل في سجن الدنيا حيث كان مستلقياً على الأريكة أصابته سهام الذكرى...

ربما هَرَبَت من واقعها المأساوي أو ربما وجدت فيّ ملاذاً آمناً يعوض عن الأب والأم وقد تحقق السعادة، حصل التقارب العقلي أكثر مما هو أو نزوة.

-(عقلكِ هذا الذي يجعلك في قلبي كالشعلة التي لا تنطفئ ومتقدة دوماً)

وبعد كل ما حدث له يحاول أن يقف من جديد، رغم كل الخسارات تكاد تكون قد قضت عليه بالضربة القاضية، كان رجوعه للقرية بعد أن هجرها لسنين طوال. رجع وقد انفصل عن زوجته وخسارة حضانة أطفاله، رجع بخفي حنين، مكملاً سرده:

-كان دخولي إلى عالمها لم يكن في الحسبان ولم أفكر فيه من قبل. ربما محض صدفة أو ربما القدر، جلست في حديقة البيت الخارجية وقد عمرت (نرجيلة) ملأت رئتي دخان بنكهة التفاح زفرته بقوة، وسط سحابة الدخان المنبعثة من فمي وأنفي، انتابتني نوبة من السعال ربما لأني غير معتاد على تعاطيها، كاد نفسي ينقطع تاركاً النرجيلة، أومأ إلى (رباب) أن تضرب على ظهري لعلي أحصل على رشفة هواء، بينما هي تقف واجمة هلعة

لا تعرف ماذا تفعل خجلة ومترددة كيف لها أن تضرب على ظهري. وبعد التردد قدمت على فعلتها وتجلب لي قدحاً من الماء عاد نفسي تدرجياً حتى استقر، ولأكثر من شهر أتردد عليهم، تجلس بقربي تواسيني بدموعها، ربما لأنها مثقفة وواعية وقد استقبلت عامها الأول للدراسة في كلية الآداب، كانت تختلف عن بنات خالي العشرة كل واحدة لها ظروفها، استعرضت لي حال أختها:

آن لصبرها أن ينفذ من سوء معاملته لها وضربها المبرح وتجريحها وشتمها.. بينما تزداد دائرة السواد حول عينيها الغائرتين والصفرة التي تعلو وجهها، أصرت أن لا ترجع إليه هذه المرة كما كانت تفعل في السابق خوفاً على أولادها، وتهديده الدائم لها، ربما قد يحرمها من رؤيتهم إلى الأبد، هكذا كانت تفكر في كل شجار يحصل بينهما..

- أنت تعرف جيداً لم أحببك يوماً في حياتي ولولا الظروف الصعبة التي تعيشها عائلتي وسوء معاملة أبي وضغطه ما كنت أتردد في أن أتخلى عن كل شيء.

قال:

- لكني أحبّك حبّاً جنونياً ولن أستطيع العيش من دونك، لكن.. الغيرة والشك نارٌ تحرق فؤادي، أعرف أنها سوف تحرق كل شيء.

- أنت مجنون.

- أنت.. خائنة.. وتعشقين غيري.

- إذا كنت في نظرك هكذا.. طلقني، أعتقني

ازداد حدة الشجار وانتهت بضربها الموجع تاركاً آثار لكماته على وجهها وعلى جسدها، في تلك الظهيرة، استشاطت غضباً، استغلت وجوده خارج البيت، جمعت أولادها وحزمت ما تبقى من أغراضها لتحافظ على ما تبقى من كرامتها، تحمل أعباء ثقيلة، تزيد الطين بلة، ظروف أهلي الصعبة ومرارة العيش، إصرارها وتمسكها أجبرته على الطلاق، قررت أن تؤجر بيتاً بسيطاً وعملها في خدمة البيوت وبيعها للخبز مصدر لقوتها وإعالة أطفالها...

"حدس"

عاودني ذلك الإحساس وجنوني القديم (الحاسة السادسة) في أن أستقرئ شيئاً بعد أن أطلت النظر في عينيها الخضراوين غابات نخيل وأشجار وخراف وبيت بسيط وأوز يسبح على نهر قريب خالجني شعور غريب وكأن أبواب السماء قد فتحت وبصيص أمل وإشراقة قد شرعت. متسائلاً مع نفسي هل تعلم أنها ستكون زوجتي، عالم افتراضي بعيد عن أي دلائل على أرض الواقع فأنا أكبرها أكثر من عشرين عاماً، قد لا تعقلون قصتي لما أحمله من تركة وواقع مرير. لكن هكذا استقرأت، وبعدما توفرت لي فرصة تدريسي لها لمادة الحاسوب والتقارب العقلي والثقافي حصل ذلك القبول، ولكن كيف لنا أن نقنع الأهل ونظرات الاعتراض لبعض الناس حسداً وغيرة، معركة خضناها سوياً، تنبأ الكثير بأنها معركة خاسرة وغير متكافئة لما ينظرون من فارق العمر.

إلا نشوة النصر لم تدُم طويلاً حتى اشتعلت نار الغيرة واصطدمت بواقع جديد...

"تنوير"

ماذا حصل بالضبط وأنا أرتعد من نزلة برد وأهذي
لا أعرف كالمحموم تحت البطانية أحاور نفسي متمتماً:(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون)**134** البقرة ها... هاشم ماذا جنيت وأنت تطارد الحقيقة وقد مضى أكثر من ثلاثة عقود تجرفك التيارات يميناً وشمالاً غلواً وتقصيراً وأنت تلتهم كل ما وقع أمامك من كتب للشيوعية والإسلامية والأدبية روايات وكتب فلسفة وصوفية وعرفان متنقلاً بين البابية والشيخية والمولوية والمهدوية بحثاً عن مدينة فاضلة. كلما تنكأ جراحك من واحدة إلا وتقع في الأخرى قد خسرت فيها الكثير... ربما بسب الدكتاتوريات والإرهاب الفكري والإرهاب اللاهوتي الطائفي والمذهبي الذي عشناه والذي يعشّش في المشرق، تراكمات تراثية من الطفولة والبيئة والمجتمع، تصورات وترسبات، ترعرعنا ونحن نستمع إلى أقوال المشايخ وآبائنا: اصبر الفرج قريب وهذا الانتظار السلبي الذي أورثنا الخوف والجبن، ونحن نتحدث ونقنع أنفسنا...

- كيف استطاع المفكرون الأوربيون الكبار بتحرير بلادهم ومجتمعاتهم من نفس الأخطاء والتصورات والترسبات التراثية. الذين يريدون (التغير بشكل راديكالي: أي من الجذور). [27]

- (كيف تحررت أوربا من اللاهوت الظلامي للقرون الوسطى الذي يقسم الناس إلى طوائف ومذاهب متناحرة)[28].

-كيف انتقلت إلى فهم الحديث المستنير للدين

تأكلنا الخرافة والأساطير معتمدين على موروث وإسرائيليات مستوحاة من أسفار العهد القديم يدغدغ عواطفنا، وكلما ضاقت وأحكمت حلقاتها ظننا أنّ الفرج قريب. وأنشد هاشم قائلاً:

فم أدرد
يلوك الكلمات
ونظرات الجالسين
سنارة صيد
عارية الطعم
عاقدات الخرق
على سلاسل

[27] هاشم صالح مدخل الى التنوير الاوربي
[28] نفس المصدر

أبواب الأولياء
حناء عصية على الأكف
جرار أشهر النحس
على عتبات
العوانس والأرامل
تنتظر الكسر
والعيون زعيق النوارس
على شواطئ
الغياب
الأساطير لعبة الأجداد
رضاعة بيد الأبناء
وأردف هاشم قائلاً:
-تأخرنا قرونا عن الدول وهي ترقى في علومها ولا زال بعض يطلق عليها الدول الكافرة وهم يفيضون علينا بمكاسبهم من أدوية وطب وتكنلوجيا التي ذللت للبشرية الصعاب وحبهم للإنسان وعطفهم على الحيوان...
(هذا ما وجدنا عليه آباءنا) دون بحث أو تحقيق !!
حينها قررت استجمع مسودات روايتي التيه بين المقدس والمدنس وأنطلق للتصحيح بما اعوجَّ مودعاً شخصياتي المتعددة علّها تتركني العيش بسلام....

سيرة الكاتب

طالب عمران المعموري مواليد 1964 /العراق/ بابل

قاص وباحث

عضو اتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

بكالوريوس آداب / قسم المكتبات والمعلومات / موظف حكومي حالياً

عضو في معظم الروابط الأدبية في الوطن العربي للقصة القصيرة جداً

صدر له:

مجموعة قصصية بعنوان صمت متسائل / دار الأرقم: حله،2013.

شتات في نفس المكان قصص قصيرة جداً/ ديوان العرب للنشر والتوزيع: مصر العربية، 2019 .

كتاب أنطولوجيا القصة د.سعد الحداد مع مجموعة كتاب محافظة بابل، 2013.

كتاب ترانيم القصص مع مجموعة من كتاب الوطن العربي في القصة القصيرة جداً: مؤسسة وطن الضاد في مصر العربية،2017.

كتاب ترانيم الحرف قصص قصيرة جداً/مجموعة من أدباء العراق والعرب: نشر وتوزيع دار المتن،2018.

كتاب ترانيم القصص مع مجموعة كتاب من الوطن العربي/مؤسسة ديوان وطن الضاد، مصر العربية،2017.

نظرة من الداخل في القصة القصيرة جداً دراسة نقدية للكاتب علي غازي /مؤسسة ديوان وطن الضاد،2020.

صليل الحروف/ديوان العرب للنشر والتوزيع موسوعة أدبية مجموعة من الكتاب في الوطن العربي.

عقلة الجنون دراسة نقدية/ كامل الديليمي، إشارة إلى بعض قصصي القصيرة جداً المنشورة في كتابي (شتات في نفس المكان)

كتاب قيد الطبع تنوع القفلة في القصة القصيرة جداً مقاربة نقدية

نشر له في الصحف المحلية والعربية

روائع القصص كتاب الكتروني /إعداد رابطة القصة القصيرة جداً في العراق/مجموعة من الكتاب العرب،2018.

ثلاث كتب إلكترونية في شعر الهايكو مع مجموعة من شعراء الهايكو في الوطن العربي

حصل على شهادات تقديرية من العديد من الروابط الأدبية في الوطن العربي، في مجال القصة القصيرة جداً والومضة القصصية، أدب الطفل، أدب المرأة، قصة الخيال.

كتب في قصيدة النثر نشر منها على بعض المواقع الإلكترونية الحوار المتمدن، صحيفة المثقف، الصباح دروب أدبية، موسم الشمال الجزائرية

له بعض القراءات نقدية وتحليلية لقصص قصيرة جداً منشورة في بعض الروابط الأدبية

له دراسة بعنوان" رمز الشر في الديانات القديمة " منشورة على موقع الحوار المتمدن.

قراءة شعرية لقصيدة "تلة الطبائع" للشاعر حسين جار الله

اشترك في مهرجان حبيب الله الدولي التاسع والملتقى الأول للقصة القصيرة جداً في العراق الذي أقيم في محافظة ذي قار.

البريد الإلكتروني:

algreebali@yahoo.com

Talibaaa5@gmail.com

الفيس بوك: طالب عمران المعموري

المصادر

1-مدخل الى التنوير الاوربي :هاشم صالح ؛ دار الطليعة، بيروت،2005.

2-نقد نقد العقل العربي: طرابيشي ،جورج ؛ دار الساقي،بيروت،2004.

3-انجيل بابل: الماجدي ،خزعل ؛ منشورات الاهلية، الاردن،1998.

4-دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: الوردي ،علي ؛

5-بخور الالهة: الماجدي ،خزعل ؛الاهلية ، الاردن،1998.

6-الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين: فرايزر ،جيمس جورج ؛ دار الفرقد سوريا،2014.

7-من النهضة الى الردة : طرابيشي ،جورج ؛ الساقي ،بيروت ،2000.

8-طقوس في الظلام : ولسون ،كولن ؛ دار الآداب، بيروت ،1986.

9-مثنوي : الرومي ،جلال الدين ؛ ترجمة وشرح الدكتور ابراهيم الدسوقي ، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة ،1996.

10-الحاسة السادسة : ولسن ،كولن ؛ ترجمة مالك فاضل البديري، الاهلية، عمان ،1998.

11-الالهة الكنعانية: الماجدي ،خزعل ؛ دار الازمنة ،عمان،**1999.**

12-مرقد الامام عمران بن علي وقرية الجمجمة: نظرات في التأريخ والتراث الشعبي: الباوي، حسين عبد الرحمن؛ دار الفرات للثقافة والاعلام،الحلة،**2012.**

13-أساطير الاستبداد/ جمال جاسم أمين؛ دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد،**2016.**ط**1**

الجمجمة " لم تكن رأساً فارغاً "

رواية

طالب عمران المعموري

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com